المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ القَصَصِ، سورةُ العَنكَبوتِ

(المجلَّدُ الثَّالثُ والعشرونَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

تَفْسِيرُ
سُورَةِ القَصَصِ

سورةُ القَصَصِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القَصَصِ).[1]

سورةُ القَصَصِ مَكِّيَّةٌ،[2] وحُكِيَ الاتِّفاقُ على ذلك.[3]

---

(1) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بـ (سورة القَصَص)؛ لوُقوعِ لَفظِ القَصَصِ فيها عندَ قَولِه تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ [القصص: 25] أي: قَصَّ موسى على الرَّجُلِ الصَّالِحِ ما لَقِيَه في مِصرَ قبلَ خروجِه منها، ولا يُعرَفُ لهذه السُّورةِ اسمٌ آخَرُ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/353)، ((تفسير ابن عاشور)) (20/61).

قال ابنُ عاشور: (فلمَّا حُكِيَ في السُّورةِ ما قصَّه موسى كانت هاتِه السُّورةُ ذاتَ قَصَصٍ لحكايةِ قَصَصٍ، فكان القَصَصُ متوَغِّلًا فيها.

وجاء لفظُ القصَصِ في سورة «يوسُفَ»، ولكِنَّ سورةَ «يوسُفَ» نزَلَتْ بعدَ هذه السُّورةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (20/61).

وقد وردَتْ بعضُ الآثارِ فيها تسميةُ هذه السُّورةِ بهذا الاسمِ؛ منها ما أخرجه النَّحَّاسُ (ص: 612)، وابنُ الضُّرَيْسِ، وابنُ مَرْدَوَيْهِ-كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/389)-، عن ابن عبَّاسٍ رَضِي الله عنهما.

وكذلك ما أخرجه ابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/389)- عن عبد الله بن الزُّبَير رضِيَ الله عنهما.

(2) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً نزلت بالجُحْفةِ، وهي قولُه تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ [القصص: 85].

وقيل: مكِّيَّةٌ إلا الآياتِ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [القصص: 52] إلى قولِه: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [القصص: 55]؛ فمَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/334)، ((تفسير ابن جرير)) (18/149)، ((تفسير الماوردي)) (4/233)، ((تفسير الزمخشري)) (3/391).

(3) ممَّن نقل الاتِّفاقَ على ذلك: الفيروزابادي.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/353).

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ:

1- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في إهلاكِ الظَّالِمينَ والمغرورين، حتَّى ولو سانَدَتْهم جميعُ قُوى الأرضِ.

2- تَثبيتُ المؤمِنينَ، وتَقويةُ عزائِمِهم، وتَبشيرُهم بأنَّ العاقِبةَ لهم.

3- التَّواضُعُ لله، المُستَلزِمُ لرَدِّ الأمرِ كُلِّه إليه.

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

1- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، والتَّعريضُ بأنَّ بُلَغاءَ المُشرِكينَ عاجِزونَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثلِه.

2- ذِكرُ طُغيانِ فِرعَونَ وإفسادِه، ووعْدُ اللهِ بإنقاذِ المُضطهَدِينَ، وعُقوبةِ المفسِدينَ.

3- ذِكرُ ميلادِ موسى عليه السَّلامُ، ورعايةِ اللهِ له وحِفظِه، وإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ.

4- حديثُ القِبطيِّ والإسرائيليِّ، وهِجرةُ موسى عليه السَّلامُ مِن مِصرَ إلى مَدْينَ، وسَقْيُه للمَرأتينِ، وزواجُه مِن ابنةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مُقابِلَ العَمَلِ لديه، ثمَّ خروجُه مِن مَدْينَ، وظُهورُ آثارِ النبُوَّةِ، وتأييدُ اللهِ له بالمُعجِزاتِ، وبَعْثُه وأخيه هارونَ عليه السَّلامُ إلى فِرعَونَ.

5- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن قَومِه، وبيانُ ما يدُلُّ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يستطيعُ أن يَهديَ مَن يحِبُّه، وأنَّ الهدايةَ بيدِ الله وحْدَه، وحكايةُ

جانبٍ مِن أقوالِ المشــركينَ مع الرَّدِّ عليها، وحكايةُ جانبٍ مِن المصــيرِ السَّــيِّئِ الَّذي ينتظرُهم يومَ القيامةِ.

6- قِصَّةُ قارونَ، وبَغيُه على قَومِ موسى عليه السَّلامُ، واغترارُه بمالِه، وعاقِبةُ البَغيِ والتَّكبُّرِ.

7- خُتِمت السُّورةُ بالأمرِ بإخلاصِ العبادةِ لله، والنَّهيِ عن الإشراكِ به.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (1–6)

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

غَريبُ الكَلِماتِ:

شِيَعًا: أي: فِرَقًا وأصنافًا، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعفةٍ.

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ: أي: يَترُكُهنَّ أحياءً فلا يقتُلهنَّ، مِن الحياةِ، وهي خِلافُ الموتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

طسم (1).

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثون بها.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2).

أي: تلك الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهِرِ الحقَّ مِن الباطِلِ، ولكلِّ أمرٍ يحتاجُ إليه العبادُ؛ مِن معرفةِ ربِّهم، وحقوقِه، وأوليائِه وأعدائِه، ووقائعِه وأيامِه، إلى غيرِ ذلك، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، ومنها أنَّ نُبوَّةَ محمَّدٍ - ﷺ - حقٌّ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ.

نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3).

أي: نقرأُ ونقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن[4] خبرَ موسى وفِرعَونَ بالصِّدقِ الَّذي لا شَكَّ فيه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ بهذا القُرآنِ، فهُم به يهتَدونَ ويعتَبِرونَ.

كما قال تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ [يوسف: 3].

---

(4) قال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ مِنْ تبعيضيَّةٌ، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيَّةً، وكَوْنَها صِلةً على رأيِ الأخفَشِ). ((تفسير الألوسي)) (253/10).
ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (248/13).

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4).

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ.

أي: إنَّ فِرعَونَ طغَى وتجبَّر وتكبَّر في الأرضِ.[5]

---

(5) قال ابنُ عطية (٦/ ٥٦٩): «يريد: في أرض مصر وموضع ملكه.
ومتى جاءت» الأرض «هكذا عامَّة فإنما يراد بها: الأرض التي تشبه قصة المسوق؛ لأن الأشياء التي تعمّ الأرض كلها قليلة، والأكثر ما ذكرناه».
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (150/18)، ((تفسير القرطبي)) (248/13)، ((تفسير ابن كثير)) (220/6).
قال الماوَرْديُّ: (وهذه الأرضُ أرضُ مِصرَ؛ لأنَّ فِرعَونَ مَلَكَ مِصرَ، ولم يَملِكِ الأرضَ كُلَّها، ومِصرُ تُسمَّى الأرضَ).
((تفسير الماوردي)) (234/4).
ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (335/3)، ((تفسير ابن جرير)) (150/18)، ((تفسير القرطبي)) (248/13)، ((تفسير ابن عاشور)) (67/20).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ.
يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (577/2).
قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تجعَلَ المرادَ بالأرضِ جميعَ الأرضِ، يعني: المشهورَ المعروفَ منها، فإطلاقُ الأرضِ كإطلاقِ الاستِغراقِ العُرفيِّ...، فالمعنى: أرضُ مملكتِه، وكان عُلُوِّه أقوى مِن عُلوِّ ملوكِ الأرضِ وسادةِ الأقوامِ).
((تفسير ابن عاشور)) (67/20).
وقال الماوَرْدي: (قولُه تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: ببَغْيِه في استِعبادِ بني إسرائيلَ وقتْلِ أولادِهم، قاله قَتادةُ.
الثَّاني: بكُفرِه وادِّعاءِ الرُّبوبيَّة.
الثَّالثُ: بمُلكِه وسُلطانِه...
وفي عُلوِّه وجهانِ؛ أحدُهما: هو لظُهورِه في غلَبتِه.
الثَّاني: كِبْرُه وتَجَبُّرُه).
((تفسير الماوردي)) (233/4).

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا.

أي: وجعَلَ فِرعَونُ أهلَ مملكتِه أقسامًا وأصنافًا متفرِّقةً.(6)

يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ.

أي: يستعبِدُ فِرعَونُ منهم بني إسرائيلَ، ويُهينُهم ويُذِلُّهم.

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (239/14).

وقال الواحديُّ: (قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...

قال المفسِّرون: استكبرَ وتجبَّر وبغى، وتعظَّمَ وطغى.

كلُّ هذا مِن ألفاظِهم).

((البسيط)) (330/17).

(6) قيل: المرادُ بقولِه: وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا أي: فِرَقًا وأصنافًا في أنواعِ الخدمةِ والتَّسخيرِ.

وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (389/3)، ((تفسير البغوي)) (521/3)، ((تفسير الرسعني)) (505/5)، ((تفسير القرطبي)) (248/13)، ((تفسير الخازن)) (356/3)، ((تفسير ابن كثير)) (220/6)، ((تفسير العليمي)) (171/5)، ((تفسير الشوكاني)) (183/4).

وقيل: جعلَهم شِيعًا، أي: فِرَقًا على أهواءٍ مختلفةٍ، وألقَى بيْنَهم التَّشاحنَ، وأغرَى بينَ القبطِ وبني إسرائيلَ، وشتَّت كلمتَهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن التسلُّطِ عليهم.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (578/24)، ((تفسير الرسعني)) (505/5).

وقيل: المُرادُ بالشِّيَعِ ما فسَّره بقولِه: يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ أي: يستخدمُهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (578/24).

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

أي: يأمُرُ بذَبحِ أبناءِ بني إسرائيلَ الذُّكورِ،[7] ويَترُكُ إناثَهم أحياءً.[8]

إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مِن المفسِدينَ في الأرضِ، بالكُفرِ والعِصيانِ، والتجبُّرِ وعَمَلِ السُّوءِ؛ ومِن ذلك سَعيُه بالتَّفريقِ بينَ الخَلقِ.

---

(7) قال ابن عاشور: (الطَّائفةُ المُستضعَفةُ هي طائفةُ بني إسرائيلَ، وضميرُ مِنْهُمْ عائدٌ إلى أَهْلَهَا لا إلى شِيَعًا).
((تفسير ابن عاشور)) (68/20).

(8) قيل: هذا بيانٌ لجمَلِ قولِه تعالى: يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ.
وممَّن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والبقاعي.
يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (331/17)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (240/14).
والمقصدُ مِن استحياءِ النساءِ: قيل: يَتركوهُنَّ أحياءً للخدمةِ.
وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والنسفي، والشوكاني، وابن عثيمين.
يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (51/1)، ((تفسير النسفي)) (88/1)، ((تفسير الشوكاني)) (98/1)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (176/1).
وقال ابنُ كثير: (وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا مِن أن يوجَدَ منهم الغلامُ الَّذي كان قد تخَوَّفَ هو وأهلُ مملكتِه مِن أن يوجَدَ منهم غلامٌ).
((تفسير ابن كثير)) (220/6).
وقيل: يَستَحْيُونَ النِّساءَ للاسترقاقِ والاستخدامِ.
واختاره الماوَرْديُّ، وأبو حيَّان.
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (255/2)، ((تفسير أبي حيان)) (249/9).
وقيل: هذا الاستِحْياءُ للإناثِ كان المقصدُ منه خبيثًا، وهو أن يَعتَدوا على أعراضِهنَّ ولا يجِدْنَ بُدًّا مِن الإجابةِ بحُكمِ الأسرِ والاسترقاقِ.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (492/1).

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5).

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ.

أي: ونريدُ أن نتفضَّلَ ونُنعِمَ على بني إسرائيلَ الَّذين استضعَفَهم فِرعَونُ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونُزيلَ السُّوءَ عنهم.

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ أئمَّةً[9] متَّبَعين، يُقتدَى بهم.

---

(9) قيل: أئمَّةً: أي: في الدِّين، وقادةً في الخيرِ.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلٌ، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/335)، ((تفسير السعدي)) (ص: 612)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/150).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (7/233).

وقيل: المعنى: وُلاةً ومُلوكًا.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/153)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5484).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/153).

وقال الشوكاني: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أي: قادةً في الخيرِ ودعاةً إليه، وولاةً على الناسِ وملوكًا فيهم).

((تفسير الشوكاني)) (4/183).

قال ابن عاشور: (فأمَّا جَعْلُهم أئمَّةً فذلك بأن أخرَجَهم مِن ذُلِّ العبوديَّةِ، وجعَلَهم أُمَّةً حُرَّةً مالِكةً أمرَ نفْسِها، لها شريعةٌ عادلةٌ، وقانونُ مُعامَلاتِها، وقوَّةٌ تَدفَعُ بها أعداءَها، ومملكةٌ خالصةٌ لها، وحضارةٌ كاملةٌ تفوقُ حضارةَ جيرتِها، بحيث تَصيرُ قُدوةً للأُمَمِ في شؤونِ الكمالِ وطلَبِ الهَناءِ، فهذا معنَى جَعْلِهم أئمَّةً، أي: يَقتدي بهم غيرُهم، ويَدْعون النَّاسَ إلى الخيرِ، وناهيك بما بلغه مُلكُ بني إسرائيلَ في عهدِ سُليمانَ عليه السَّلامُ).

كما قال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [المائدة: 20].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: 24].

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ وارِثينَ لملكِ فِرعَونَ وأرضِه مِن بعدِ إهلاكِنا له.

كما قال تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 137].

وقال سُبحانَه: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 57 – 59].

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6).

((تفسير ابن عاشور)) (71/20).

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

أي: ونُوطِّئَ لبني إسرائيلَ في الأرضِ،[10] ونجعَلَهم مُقتَدِرينَ على التَّصرُّفِ والاستقرارِ فيها.

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ.

أي: ونريدُ أن نُريَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زَوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ.

(10) قيل: الأرضُ هنا هي أرضُ مِصرَ والشَّامِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود.

يُنظر: المصادر السابقة.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (7–13)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا
رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا
تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا
إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْيَمِّ: أي: البَحرِ، ويُطلَقُ اليَمُّ على ما كان ماؤُه مِلحًا، وعلى النَّهرِ الكبيرِ العَذبِ الماءِ، والمرادُ هنا نَهرُ النِّيلُ.

قُرَّةُ عَيْنٍ: يُقالُ: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّتْ، وقيل لِمَن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عينٍ، وأصلُه مِن القُرِّ، أي: البَرَدِ، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ اللهُ عينَه، أي: أنامَها.

رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا: أي: شَدَدْنا عليه وثبَّتْناه، وألهَمْناها الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شدٍّ وثباتٍ.

قُصِّيهِ: أي: تتَبَّعي أثَرَه، والقَصُّ: تتبُّعُ الأثَرِ، وأصلُ (قصص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ.

عَنْ جُنُبٍ: أي: عن بُعدٍ، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على بُعدٍ.

يَكْفُلُونَهُ: أي: يَضُمُّونَه إليهم، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7).

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ.

أي: وأوحَيْنا[11] إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى ما دُمتِ آمِنةً عليه.

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ.

أي: فإذا خِفْتِ على موسى مِن فِرعَونَ وجُندِه، فاطرَحيه في نهرِ النِّيلِ بعدَ وَضعِه في التَّابوتِ.[12]

كما قال تعالى: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ [طه: 38، 39].

---

(11) قال السمعاني: (أكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ معنى قولِه: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى هو إلهامُها، وألقَى هذا المعنى في قَلبِها.
وقال بعضُهم: رَأَتْ ذلك رُؤْيا.
وقال بعضُهم: هو الوَحْيُ حقيقةً، وأتاها المَلَكُ بهذا مِن الله، إلَّا أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً).
((تفسير السمعاني)) (4/122).
وقال ابنُ عطية: (أجمَعَ الكُلُّ على أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً).
((تفسير ابن عطية)) (4/276).
(12) قال السمعاني: (اليمُّ: البَحرُ، والمرادُ منه هاهنا على قَولِ جميعِ المفسِّرينَ هو النِّيلُ).
((تفسير السمعاني)) (4/123).

وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي.

أي: ولا تخافي على موسى مِن الهَلاكِ من الغَرَقِ أو غيرِه، ولا تحزني على فِراقِه.

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

أي: إنَّا رادُّو ابنِك موسى إليكِ، وجاعِلوه مِن رُسلِ اللهِ إلى عِبادِه.

فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

(8).

فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

أي: فأخَذ آلُ فِرعَونَ(13) موسى؛ لِيَكونَ(14) عدوًّا لهم في دينِهم، وحَزَنًا يَحزُنُهم بزَوالِ مُلكِهم، وهَلاكِهم على يديه.

---

(13) اختلف أهل التأويل في المَعْنِيّ بقوله: ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ في هذا الموضـــع على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ المراد: جواري امرأة فرعون.

وهذا قول السّدّيّ.

والثاني: أنّ المراد: ابنة فرعون.

وهذا قول محمد بن قيس.

والثالث: أنّ المراد: أعوان فرعون.

وهذا قول محمد بن إسحاق.

وذكر ابنُ جرير (١٨/ ١٦١) تلك الأقوال، ورَجّح صحةَ ما يحتمله اللفظ من تلك المعاني، فقال: «ولا قول في ذلك عندنا أولى بالصواب مما قال الله – عز وجل –: ﴿فالتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ﴾».

(14) اختلف المفسِّـــرون في اللَّامِ مِن قَولِه تعالى: لِيَكُونَ؛ فقيل: هي لامُ العاقبةِ والصَّـــيرورةِ، أي: أخَذوه فكان عاقبةُ أمرِهم أنْ صار موسى عدوًّا لهم وحَزَنًا.

وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (161/18)، ((تفسير ابن عطية)) (277/4)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (492/3)، ((تفسير القرطبي)) (252/13)، ((تفسير الشوكاني)) (184/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 612).

قال ابن تيميَّة: (لام العاقبةِ إنَّما تجيءُ في حقِّ مَن لا يكونُ عالمًا بعواقبِ الأمورِ ومصايرِها، فيفعلُ الفعلَ الَّذي له عاقبةٌ لا يَعلَمُها؛ كآلِ فِرعونَ، فأمَّا مَن يكونُ عالمًا بعواقبِ الأفعالِ ومصايرِها فلا يُتصَوَّرُ منه أن يَفعلَ فِعلًا له عاقبةٌ لا يَعلَمُ عاقبتَه، وإذا عَلِم أنَّ فِعلَه له عاقبةٌ فلا يقصدُ بفعلِه ما يعلمُ أنَّه لا يكونُ؛ فإنَّ ذلك تَمَنٍّ وليس بإرادةٍ).

((مجموع الفتاوى)) (187/8).

وقال أيضًـــا: (لام الصَّـــيرورةِ إمَّا أن تكونَ لِمَن لا يُريدُ الغايةَ، وذلك إنَّما يكونُ لجهلِ الفاعلِ بالغايةِ؛ كقولِه: فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا.

وإمَّا لعجزِه عن دفْعِها، وإنْ كان كارهًا لها).

((بيان تلبيس الجهمية)) (217/1).

وقيل: اللَّامُ هنا للتَّعليلِ.

وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ القيم، وابن كثير، ورجَّحه الشنقيطيُّ وردَّ القولَ الآخَر.

يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 191)، ((تفسير ابن كثير)) (222/6)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (150/6).

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ.

أي: إنَّ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما كانوا عُصاةً آثِمِينَ.

وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9).

وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ.

أي: وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سُرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ.

لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.

أي: لا تَقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا فننالَ منه خيرًا، أو نجعَلُه لنا ولدًا فنتبَنَّاه!

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

أي: وفِرعَونُ وآلُه لا يَعلَمونَ ما هو كائِنٌ مِن أنَّ هلاكَهم على يَدَيْ هذا الطِّفلِ![15]

قال ابن كثير: (قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه: «اللَّامُ» هنا لامُ العاقبةِ، لا لامُ التَّعليلِ؛ لأنَّهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك.

ولا شكَّ أنَّ ظاهِرَ اللَّفظِ يقتضي ما قالوه، ولكِنْ إذا نُظِرَ إلى معنى السياقِ فإنَّه تبقى اللَّامُ للتَّعليلِ؛ لأنَّ معناه: أنَّ اللهَ تعالى قيَّضَهم لالتقاطِه؛ لِيَجعَلَه لهم عدوًّا وحَزَنًا، فيَكونَ أبلَغَ في إبطالِ حَذَرِهم منه).

((تفسير ابن كثير)) (222/6).

(15) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿وهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ المراد: وهم لا يشعرون أنّ هلاكهم على يديه.

وهذا قول قتادة، ومجاهد.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10).

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا.

والثاني: أنّ المراد: وهم لا يشعرون بما هو كائن مِن أمرهم وأمره.

وهذا قول محمد بن إسحاق.

والثالث: أنّ المراد: وبنو إسرائيل لا يشعرون أنّا التَقَطْناه.

وهذا قول محمد بن قيس.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ١٦٦) القولَ الثانيَ مستندًا إلى السياق، وقال: «إنما قلنا ذلك أولى التأويلات به؛ لأنه عقِيب قوله: ﴿وقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أنْ يَنْفَعَنا أوْ نَتَّخِذَهُ ولَدًا﴾، وإذا كان ذلك عقبه فهو بأن يكون بيانًا عن القول الذي هو عقبه أحقُّ مِن أن يكون بيانًا عن غيره».

أي: وأصبحَ قلبُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى،[16] فلا تفكِّرُ فيما سِواه، ولا تَحمِلُ همًّا غيرَه.[17]

---

(16) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ المراد: فارغًا مِن كل شيء سوى ذِكْرِ ابنها موسى.

وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، ومطر.

والثاني: أنّ المراد: فارغًا مِن الوحي الذي أوحاه الله إليها.

وهذا قول ابن زيد، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما.

والثالث: أنّ المراد: فارغًا مِن الحزن؛ لعلمها بأنه لم يغرق.

وهذا قول نسبه ابن جرير لبعض أهل المعرفة بكلام العرب.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ١٧٠) القولَ الأولَ، وانتَقَدَ القولَ الثاني مستندًا إلى السياق والعموم، وقال: «إنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لدلالة قوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، ولو كان عَنى بذلك: فراغ قلبها من الوحي لم يعقّب بقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ لأنها إن كانت قاربت أن تبدي الوحي، فلم تكد أن تبديه إلا لكثرة ذكرها إياه، وولوعها به.

ومحال أن تكون به ولِعَة إلا وهي ذاكرة.

وإذا كان ذلك كذلك بطل القول بأنها كانت فارغة القلب مما أوحي إليها.

و؟ أخرى؟ ﴿ع﴾: أنّ الله –تعالى ذكره– أخبر عنها أنها أصبحت فارغة القلب، ولم يَخْصُص فراغ قلبها من شيء دون شيء، فذلك على العموم إلا ما قامت حجته أن قلبها لم يفرغ منه».

وانتَقَدَ أيضًا القولَ الثالث، فقال: «هذا قول لا معنى له؛ لخلافه قول جميع أهل التأويل».

(17) وممَّن قال بهذا المعنى لفراغِ فؤادِها: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 328، 329)، ((تفسير ابن جرير)) (170/18)، ((تفسير ابن كثير)) (223/6)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة القصص)) (ص: 46).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وجمهورُ المفسِّرينَ: أصبَح قلبُها فارغًا مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن ذِكرِ موسى).

((تفسير الرسعني)) (513/5).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ إضافةً إلى ابنِ عبَّاسٍ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، ومطَرٌ الوَرَّاقُ، وأبو عبيدةَ، والحسنُ البصريُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (167/18)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2946/9)، ((تفسير ابن الجوزي)) (376/3)، ((تفسير ابن كثير)) (223/6).

إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ.

أي: قاربَتْ أمُّ موسَى أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلْبِها مِن شأنِ موسَى.(18)

لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: كادت أمُّ موسى أن تُظهِرَ ما تُخفيه لولا أن ثبَّتْنا قَلْبَها؛ لِتَكونَ مِنَ المُؤمنينَ بوَعدِ اللهِ، الموقِنينَ به.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11).

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ.

أي: وقالت أمُّ موسى لأختِ موسى: اذهَبي فتَتَبَّعي أثَرَ موسى، وابحَثي عنه؛ لِتَعلَمي خبَرَه.

فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ.

وقيل في معنى فراغِ فؤادِها غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/168-170)، ((تفسير الماوردي)) (4/237)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/376).

(18) اختُلِف في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ على قولين: أولهما: أنّه يعود على ابنها موسى.

وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنّه يعود على ما أوحاه الله إليها.

وهذا القول ذكره ابن جرير، ولم ينسبه لأحد.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ١٧١ - ١٧٢) القولَ الأولَ مستندًا إلى السياق، وإجماع الحجة مِن أهل التأويل، قال: «الصواب مِن القول في ذلك ما قاله الذين ذكرنا قولَهم أنهم قالوا: إن كادت لتقول: يا بنياه.

لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، وأنّه عقيب قوله: ﴿وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارِغًا﴾، فلأن يكون -لو لم يكن ممن ذكرنا في ذلك إجماع على ذلك- مِن ذِكْرِ موسى لقربه منه أشبه مِن أن يكون مِن ذِكْرِ الوحي».

أي: فذهبَتْ تَتبَعُ أثَرَه، فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وكأنَّها لا تَقصِدُه.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

أي: وقومُ فِرعَونَ لا يعلَمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه.

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12).

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ.

أي: ومَنَعْنا موسى مِن قَبْلُ[19] مَنْعًا قَدَريًّا أن يَقبَلَ الرَّضاعَ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ أمِّه.

---

(19) قال الشوكاني: (ومعنَى مِنْ قَبْلُ: مِن قبْلِ أنْ نَرُدَّه إلى أُمِّه، أو مِن قبلِ أنْ تأتيَه أُمُّه، أو مِن قبلِ قَصِّها لأثَرِه). ((تفسير الشوكاني)) (4/186).

وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بن سليمان، ومكّي، وابنُ الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/338)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5497)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/377)، ((تفسير الرسعني)) (5/516)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 508).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: من قَبلِ مجيءِ أمِّه: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/600)، ((تفسير الثعلبي)) (7/238)، ((تفسير البغوي)) (3/525)، ((تفسير القرطبي)) (13/257)، ((تفسير الخازن)) (3/359).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: مِنْ قَبْلُ أي: مِن قبلِ قَصِّها أثرَه: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والعليمي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/396)، ((تفسير البيضاوي)) (4/173)، ((تفسير العليمي)) (5/177)، ((تفسير القاسمي)) (7/516).

وقيل: المرادُ: مِن قَبلِ التِقاطِ آلِ فِرعَونَ له.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور.

فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ.

أي: فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّونَ هذا الطِّفلَ، ويَضْمَنونَ لكم القيامَ بحَضانتِه ومَصالِحِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه، لا يُقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه؟

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13).

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ.

أي: فردَدْنا موسى إلى أمِّه؛ لكيْ تُسَرَّ به وتفرَحَ، ولا تحزَنَ على فِراقِه!

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: ولِتَعلَمَ أمُّ موسى عِلمًا هو عينُ اليقينِ أنَّ ما وعَدَها اللهُ مِن ردِّ موسى إليها، وجَعْلِه رَسولًا:[20] صِدقٌ ثابِتٌ لا بدَّ مِن وُقوعِه.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (84/20).
قال ابن عاشور: (وهو إيذانٌ بأنَّ ذلك التَّحريمَ ممَّا تعلَّقَ به عِلمُ اللهِ وإرادتُه في الأزَلِ).
((تفسير ابن عاشور)) (84/20).
(20) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥٧٧) بأن ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ المشـار إليه في هذه الآية هو الذي أوحاه إلى أم موسـى أولًا في قوله تعالى: ﴿وأَوْحَينا إلى أُمِّ مُوسى أنْ أرْضِعيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ولا تَخافي ولا تَحْزَني إنّا رادُّوهُ إلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَهم[21] لا يَعلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ كائنٌ، ولا يُصَدِّقونَ به، ولا يَعلَمونَ حِكَمَه العَظيمةَ في أفعالِه وقَدَرِه سُبحانَه.

[القصص: ٧]، إما بمَلَك أو تمثُّله، وإما بإلهام؛ حسب اختلاف المفسرين في ذلك، ثم انتقد القول بالإلهام مستندًا إلى اللغة بأنه «يضعف أن يقال فيه: وعْد».

(21) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/180)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5500).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ آلِ فِرعَون.

وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (13/258).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ أهلِ مِصرَ.

وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/338)، ((تفسير السمرقندي)) (2/601).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (4/240)، ((تفسير ابن عطية)) (4/279).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ النَّاسِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: 508)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 59).

قوله: لَا يَعْلَمُونَ قيل: لا يَعلمونَ ما يُرادُ بهم.

وقيل: لا يَعلمون مِثلَ عِلمِها.

وقيل: لا يَعلمون أنَّ وعدَ الله حقٌّ.

وقيل: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ وعَدَها بأنْ يَرُدَّه إليها.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (4/127)، ((تفسير الماوردي)) (4/240)، ((تفسير الشوكاني)) (4/187).

سورةُ القَصَصِ

الآيات (14–17)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ
الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ
عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ
لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ
(17)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

بَلَغَ أَشُدَّهُ: الأشَدُّ: استحكامُ قوَّةِ شبابِه وسِنِّه، قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له، وقد اختُلِف في وقتِ بُلوغِ الأشُدِّ، وأصلُ (بلغ): وصولٌ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ.

وَاسْتَوَى: أي: تمَّ خَلْقُه، واعتدلَ، واستَحْكَم شبابُه واستقرَّ، فلم تكُنْ فيه زيادةٌ، وقيل: بلَغ أربعينَ سنةً، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ.

شِيعَتِهِ: أي: أصحابِه وأتباعِه، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ.

فَاسْتَغَاثَهُ: أي: طلَبَ غَوْثَه ونَصْرَه، وأصلُ (غوث): يدُلُّ على النُّصرةِ عندَ الشِّدَّةِ.

فَوَكَزَهُ: أي: دفَعَه وضرَبَه بجُمْعِ كَفِّه في صَدرِه.

ظَهِيرًا: أي: مُساعِدًا ومُعِينًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبروزٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14).

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

أي: ولَمَّا بلغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه، وتناهى شبابُه، واكتَمَل خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا وعِلمًا قبْلَ النُّبوَّةِ.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

أي: وكما جازَيْنا موسى بإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ بسَبَبِ إحسانِه، نُثيبُ أيضًا كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه في عبادةِ اللهِ، أو في إحسانِه للخَلقِ.

كما قال تعالى: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: 56].

وقال سُبحانَه: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ [الزمر: 10].

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15).

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا.

أي: ودخَل موسى مدينةً في مِصرَ في وقتٍ لا يَشعُرُ فيه أهلُها بدُخوله.[22]

فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ.

أي: فوجَدَ موسى في المدينةِ رجُلينِ يتضارَبانِ ويتنازَعانِ؛ أحدُهما مِن بني إسرائيلَ، والآخَرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ.

فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ.

أي: فطلَبَ الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه الرَّجلِ القِبطيِّ.

فَوَكَزَهُ مُوسَى.

أي: فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه (بقبضةِ يدِه).

---

(22) اختلف في سبب دخول موسى – عليه السلام – هذه المدينة في هذا الوقت على أقوال: الأول: دخلها مُتَّبِعًا أثر فرعون، وذلك أنّ فرعون رَكِبَ يومًا وليس عنده موسى، فلمّا جاء موسى رَكِبَ في إثْره، فأدركه المقيل في تلك المدينة.

الثاني: دخلها مُستَخفِيًا مِن فرعون وقومه؛ لأنّه كان قد خالفهم في دينهم، وعاب عليهم ما كانوا عليه.

الثالث: أنهم لما أخرجوه لم يدخل عليهم حتى كَبِر، فدخل على حين غفلة عن ذِكْرِه؛ لأنه قد نُسِيَ أمره.

ورجّح ابن جرير (١٨/ ١٨٥) مستندًا إلى دلالة ظاهر الآية «أن يقال كما قال الله –جلَّ ثناؤه–: ولما بلغ أشُدَّه واستوى دخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها».

فَقَضَى عَلَيْهِ.

أي: فقتَلَه بتلك الضَّربةِ.

قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

أي: قال موسى: هذا القَتلُ قد وقَع بسبَبِ إغواءِ الشَّيطانِ لي، وتَزيينِه ووَسوستِه.

إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ.

أي: إنَّ الشَّيطانَ عدُوٌّ يسعَى في إضلالِ بني آدَمَ عن الحَقِّ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ لهم.

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((... فيأتونَ موسى فيقولونَ: يا موسى، أنتَ رسولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ برِسالتِه وبكَلامِه على النَّاسِ، اشفَعْ لنا إلى ربِّك، ألَا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي قد غضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، ولن يغضَبَ بعْدَه مِثلَه، وإنِّي قد قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقَتلِها، نفْسي نفْسي نفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى عيسى...))[23].

---

(23) رواه البخاري (4712) واللفظ له، ومسلم (194).

قال الشوكاني: (موسى عليه السَّلامُ ما زال نادمًا على ذلك، خائفًا مِن العقوبةِ بسببِه، حتى إنَّه يومَ القيامةِ عندَ طلَب النَّاسِ الشَّفاعةَ منه يقولُ: «إنِّي قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»، كما ثبَت ذلك في حديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحِ...

ولا شَكَّ أنَّهم معصومون مِن الكبائرِ، والقَتلُ الواقعُ منه لم يكُنْ عن عَمدٍ، فليس بكبيرةٍ؛ لأنَّ الوَكْزةَ في الغالبِ لا تَقتُلُ).

((تفسير الشوكاني)) (4/189).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (20/90).

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ **(16)**.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي.

أي: قال موسى: ربّ إِنِّي ظَلمتُ نفْسي بقَتلِ نَفْسٍ لم تأمُرْني بقَتلِها، فاستُرْ ذَنْبي، ولا تؤاخِذْني به.

فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

أي: فغَفَر اللهُ لموسى ذنْبَه، ولم يُعاقِبْه عليه؛ لأنَّ اللهَ هو الغفورُ لِذُنوبِ عبادِه، الرَّحيمُ بهم.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ **(17)**.

أي: قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك علَيَّ[24] فأُعاهِدُك ألَّا أكونَ مُعينًا للمجرمين.[25]

(24) قيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: العفوُ عن قتلِ تلك النَّفْسِ، والمغفرةُ وعدَمُ المُعاقَبةِ.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/339)، ((تفسير ابن جرير)) (18/191)، ((تفسير السمرقندي)) (2/602)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5505)، ((تفسير الثعلبي)) (7/241)، ((تفسير السمعاني)) (4/128)، ((تفسير البغوي)) (3/527).

ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/258)، ((تفسير السعدي)) (ص: 613).

وقيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: المعرفةُ والحِكمةُ والتَّوحيدُ.

وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (13/262).

وقيل: الجاهُ والعِزُّ والمَنَعةُ.

وممَّن قال بذلك: ابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/225).

قال الشوكاني: (والمرادُ بما أنعَمَ به عليه: هو ما آتاه مِن الحُكمِ والعِلمِ، أو بالمغفرةِ، أو الجميعِ).

((تفسير الشوكاني)) (4/189).

(25) قال الألوسي: (والمجرمين جمعُ مُجرِمٍ، والمرادُ به: مَن أوقَعَ غيرَه في الجُرمِ، أو مَنْ أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ؛ كالإسرائيليِّ الَّذي خاصمَه القِبطيُّ فأدَّتْ مُعاوَنتُه إلى جُرمٍ في نظَرِ موسى عليه السَّلامُ...

وجُوِّزَ أن يُرادَ بذلك الكفَّارُ، وعنى بهم مَنِ استغاثه ونحوَه؛ بِناءً على أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ.

وقيل: أراد بالمجرمين فِرعونَ وقَومَه، والمعنى: أُقسِمُ بإنعامِكَ علَيَّ لَأَتُوبَنَّ فلن أكونَ مُعينًا للكفَّارِ بأنْ أصحَبَهم وأُكثِّرَ سَوادَهم، وقد كان عليه السَّلامُ يَصحَبُ فِرعونَ ويَركَبُ برُكوبِه؛ كالولدِ مع الوالدِ، وكان يُسمَّى ابنَ فِرعونَ).

((تفسير الألوسي)) (10/264).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/398).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: لِلْمُجْرِمِينَ أي: المشركين الكافرين: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/191)، ((تفسير القرطبي)) (13/262)، ((تفسير ابن كثير)) (6/225)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 509)، ((تفسير العليمي)) (5/180).

قال الواحدي: (فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ [القصص: 17] قال ابنُ عبَّاسٍ: عَوْنًا للكافرين.

وهذا يدُلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قولُ مُقاتلٍ).

((الوسيط)) (3/393).

سورةُ القَصَصِ

الآيات (18-21)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

وممَّن اختار أنَّ الإسرائيليَّ الَّذي نصَرَه موسى عليه السَّلامُ كان كافرًا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (339/3)، ((تفسير السمرقندي)) (602/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (378/3)، ((تفسير الخازن)) (360/3)، ((تفسير العليمي)) (180/5).

قيل: وإنَّما ذكَر تعالى أنَّه مِن شيعتِه؛ لأنَّه كان إسرائيليًّا، ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدِّينِ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (262/13).

غَرِيبُ الكَلِمَاتِ:

يَتَرَقَّبُ: أي: ينتظرُ سوءًا يَنالُه منهم، أو ينتظرُ الأخبارَ، والترقُّبُ: انتظارُ المكروهِ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شَيءٍ.

يَسْتَصْرِخُهُ: أي: يستغيثُ به، ويطلُبُ ما يُزيلُ ما يَصرُخُ بسببِه مِن الضرِّ، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رفيعٍ.

لَغَوِيٌّ: أي: لَمُضِلٌّ، والغَوِيُّ: الشَّديدُ الغَوايةِ، وهي الضَّلالُ، وسُوءُ النَّظَرِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ.

يَبْطِشَ: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخْذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ.

جَبَّارًا: الجبارُ: القاتلُ ظُلمًا بغيرِ حقٍّ، والَّذي لا يَتواضعُ لأمرِ اللهِ، ويُقالُ لِمَن يَجبُرُ نقيصتَه بادِّعاءِ منزلةٍ مِنَ التَّعالي لا يَستحِقُّها، وأصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضربٍ مِن القهرِ، وقد يقالُ الجبرُ تارةً في الإصلاحِ المجرَّدِ، وتارةً في القهرِ المجرَّدِ، وأصلُ (جبر): جنسٌ مِن العظمةِ والعُلُوِّ والاستقامةِ.

الْمَلَأَ: أي: أشرافَ النَّاسِ ووجوهَهم ورؤساءَهم، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأَ عينَه مِن رؤيتِه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ.

يَأْتَمِرُونَ: أي: يَتشاورونَ، ويأمُرُ بَعضُهم بعضًا، يُقالُ: ائتمَرَ القَومُ في كذا وتآمَروا: إذا شاوَرَ بعضُهم بعضًا، وأصلُه مِن الأمرِ الَّذي هو ضِدُّ النَّهيِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18).

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ.

أي: فأصبَحَ موسى في المدينةِ –التي قُتِلَ فيها القِبطيُّ– خائِفًا أن يُؤخَذَ بجنايتِه، يُراقِبُ الأخبارَ، وينتَظِرُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه!

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ.

أي: فتفاجَأَ موسى بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلَبَ منه النُّصرةَ على الفِرعَونيِّ بالأمسِ يَصرُخُ ويَصيحُ به اليَومَ، طالِبًا أن يَنصُرَه على فِرعَونيٍّ آخَرَ!

قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ.

أي: قال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك ظاهِرُ الغَوايةِ، كَثيرُ المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ لِمَن لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه.[26]

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19).

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا.

أي: فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليّ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، ويَضرِبَه.

---

(26) قال السمعاني: (قولُه: قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ الأكثرونَ أنَّ هذا قاله موسَى للإسرائيليّ...
ويُقالُ: إنَّ هذا قالَه للقبطيّ).
((تفسير السمعاني)) (129/4).
وممَّن نصَّ على أنَّ الخِطابَ هنا للاسرائيليِّ: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (193/18)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (259/14)، ((تفسير ابن عاشور)) (94/20)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة القصص)) (ص: 81).

قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ.

أي: قال:[27] يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليومَ كما قتَلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ؟!

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ.

---

(27) قيل: القائِلُ هو الإسرائيليُّ.

وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحديُّ -وحكَى فيه الإجماعَ-، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/340)، ((تفسير ابن جرير)) (18/195)، ((البسيط)) للواحدي (17/362)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/378)، ((تفسير ابن كثير)) (6/225)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/260).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، والسُّدِّيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/195)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (9/2958)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/401).

قال ابنُ الجوزي: (هذا قَولُ الإسرائيليِّ مِن غيرِ خِلافٍ عَلِمناه بيْنَ المفسِّرين، قالوا: لَمَّا رأى الإسرائيليُّ غَضَبَ موسى عليه حينَ قال له: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ورآه قد هَمَّ أن يبطِشَ بالفِرعَونيِّ، ظنَّ أنه يُريدُه، فخاف على نفْسِه فـ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي؟!).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/378).

قال جمهورُ المفسِّرينَ -كما نسَبه إليهم الشوكاني-: ولم يَكُنْ قد عَلِم أحدٌ مِن أصحابِ فرعونَ أنَّ موسَى هو الَّذي قَتَل القِبطيَّ بالأمسِ حتَّى أفشَى عليه الإسرائيليُّ.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (4/190).

وقيل: القائِلُ: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ هو القِبطيُّ.

وممَّن استظهر هذا القَولَ: الرازيُّ، والشوكانيُّ، وقال به السعديُّ، ورجَّحه ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (24/587)، ((تفسير الشوكاني)) (4/190)، ((تفسير السعدي)) (ص: 614)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 84، 85).

قال الشوكاني: (وهذا هو الظَّاهِرُ، وقد سبَقَ ذِكرُ القِبطيِّ قبلَ هذا بلا فَصلٍ؛ لأنَّه هو المرادُ بقولِه: عَدُوٌّ لَهُمَا، ولا مُوجبَ لمُخالفةِ الظَّاهِرِ حتَّى يَلزَمَ منه أنَّ المؤمنَ بموسى المُستغيثَ به المَرَّةَ الأُولى والمَرَّةَ الأُخرى هو الَّذي أفشَى عليه.

وأيضًا أنَّ قولَه: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ لا يَليقُ صُدورُ مِثلِه إلَّا مِن كافرٍ).

((تفسير الشوكاني)) (4/190).

أي: ما تُريدُ –يا موسى– بقَتلِك النَّاسَ ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا غالِبًا، تأخُذُ النَّاسَ بالشِّدَّةِ والقوَّةِ، فلا يكونُ فوقَك أحَدٌ!

وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ.

أي: وما تريدُ أن تكونَ ممَّن يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها مِنْ طاعَةِ اللَّهِ، وما هكذا يكونُ الإصلاحُ.(28)

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20).

---

(28) وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى: مِنَ الْمُصْلِحِينَ أيْ: مِنَ الَّذينَ يُصلِحونَ بيْنَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ، فتدفَع التَّخاصُمَ بالَّتي هي أحسَنُ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (265/13)، ((تفسير البيضاوي)) (174/4)، ((تفسير أبي السعود)) (7/7)، ((تفسير الشوكاني)) (190/4)، ((تفسير الألوسي)) (268/10)، ((تفسير القاسمي)) (518/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (94/20).

وممن اختار أنَّ معنى: مِنَ الْمُصْلِحِينَ أي: المطيعين لله: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (340/3)، ((تفسير السمرقندي)) (602/2).

وقال ابنُ جرير: (ما تريدُ أنْ تكونَ ممَّنْ يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها، مِنْ طاعَةِ اللَّهِ).

((تفسير ابن جرير)) (197/18).

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى.

أي: وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ وأبعَدِها يمشي مُسرِعًا إلى موسى.[29]

قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ.

أي: قال ناصِحًا لموسى: يا موسَى، إنَّ الأشرافَ والرُّؤساءَ مِن قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا بذلك.

فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ.

أي: فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي مِن النَّاصِحينَ لك في أمرِك بالخُروجِ منها.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21).

(29) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥٨١) أن ﴿يسعى﴾ معناه: يسرع في مشيه، وهو دون الجري.

ونسبه إلى الزجاج وغيره.

ثم نقل عن الزجاج قولًا آخر أنّ معناه: يعجل، وليس بالشَّدّ.

وعلَّق عليه بقوله: «وهذه نزعة مالك في سعي الجمعة».

ثم رجَّح المعنى الأول لأنّه الأظهر قائلًا: «والأول عندي أظهر في هذه الآية».

[٤٩٤١] علّق ابنُ عطية (٦/ ٥٨٢) على قول من قال: إن اسم الرجل الساعي من أقصى المدينة: شمعون.

وقول مَن قال: اسمه سمعان.

بقوله: «والتثبت في هذا ونحوه بعيد».

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا.

أي: فخرَج موسى مِنَ المدينةِ وهو خائِفٌ مِن قَومِ فِرعَونَ، يتلفَّتُ ويَنظُرُ: هل يَلحَقونَ به ويدركونَه؟!

قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

أي: قال موسى داعيًا رَبَّه، وهو هارِبٌ مِن مدينةِ فِرعَونَ: رَبِّ خَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ، وإرادةِ قَتلي على ما وقَع منِّي مِن قتلٍ بالخَطأ!

سورةُ القَصَصِ

الآيات (22–25)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا
نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ
إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

غَرِيبُ الكَلِمات:

تِلْقَاءَ: أي: تُجاهَ ونَحوَ، والتِّلْقاءُ: جِهةُ اللَّقاءِ والمُقابَلةِ، وأصلُ (لقي): يدُلُّ على توافي شَيئينِ.

سَوَاءَ السَّبِيلِ: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتدادِه.

وَرَدَ: أي: بلَغَ ووصَلَ، والوُرودُ: قَصْدُ الماءِ، ثمَّ يُستعمَلُ في غيرِه، وأصلُ (ورد): يدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ.

أُمَّةً: أي: جماعةً، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمَعُهم أمرٌ ما؛ إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وأصلُ (أمم): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ.

تَذُودَانِ: أي: تَكُفَّانِ، وتَحبِسانِ غنَمَهما، والذَّوْدُ أكثرُ ما تُستعمَلُ في الغَنَمِ والإبلِ، وأصلُه يدُلُّ على تنحيةِ الشَّيءِ عن الشَّيءِ.

خَطْبُكُمَا: أي: أمْرُكما وشأنُكما، والخطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِمَا يقعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمراجعةِ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الكلامِ بينَ اثنينِ.

يُصْدِرَ: أي: يرجِعَ ويَفرُغَ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ.

الرِّعَاءُ: جمعُ راعٍ، وأصلُ (رعي): يدُلُّ على مُراقَبةٍ وحِفظٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22).

أي: ولَمَّا خرَج موسى مِن مِصرَ، وقَصَد جِهةَ مَدْيَنَ بلا دليلٍ يَهديه، وخَشِيَ أن يَضِلَّ الطَّريقَ؛ قال: عسى[30] أن يُبَيِّنَ لي ربِّي الطَّريقَ المُوصِلَ بسُهولةٍ ويُسرٍ إلى مَدْيَنَ.[31]

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23).

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ.

أي: ولَمَّا بلَغ موسى ماءَ مَدْيَنَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسقُونَ مَواشِيَهم.

---

(30) قال البقاعي: (عَسَى أي: خليقٌ وجديرٌ وحقيقٌ).
((نظم الدرر)) (264/14).

(31) وممَّن ذهب إلى أنَّ موسى أراد بدُعائِه الهدايةَ إلى الطَّريقِ الحِسِّيةِ المُوصِلةِ إلى مَدْيَنَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، والسعدي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (203/18، 205)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2960/9، 2961)، ((تفسير الماوردي)) (245/4).
وقيل: أراد موسى سَبيلَ الهدى إلى الحَقِّ.
وممَّن استحْسَنَه ومال إليه: ابنُ عطيَّة، واستظهَرَه ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ كثيرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (283/4)، ((تفسير ابن جزي)) (111/2)، ((تفسير ابن كثير)) (226/6).

وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ.

أي: ووجَدَ مِن دونِ[32] تلك الجماعةِ امرأتينِ تحبِسانِ غنَمَهما عن النَّاسِ.[33]

قَالَ مَا خَطْبُكُمَا.

أي: قال موسى للمَرأتينِ: ما شأنُكما تكُفَّانِ غنَمَكما، ولا تَسقيانِ مع النَّاسِ؟!

---

(32) قال الشوكاني: (مِنْ دُونِهِمْ أي: مِن دونِ النَّاسِ الَّذينَ يَسْقونَ ما بيْنَهم وبينَ الجِهةِ الَّتي جاءَ منها.
وقيلَ: معناه: في مَوضعٍ أسفلَ مِنهم).
((تفسير الشوكاني)) (4/191).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: في مَوضعٍ أسفَلَ مِن موضعِ الجماعةِ، ومكانٍ أسفَلَ مِن مكانِهم: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، والبقاعي، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/400)، ((تفسير الرازي)) (24/588)، ((تفسير الرسعني)) (5/524)، ((تفسير البيضاوي)) (4/175)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/264)، ((تفسير العليمي)) (5/184).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: مِنْ دُونِهِمُ أي: مِن سِواهم: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي.
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/394)، ((تفسير السمعاني)) (4/131)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/379)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 510).

(33) اختُلِف في الذي كانت تذود عنه المرأتان؛ فقيل: كانتا تحبسان غنمهما عن الماء؛ لضعفهما عن زحام الناس.
وقيل: كانتا تحبسان الناس عن غنمهما.
ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٢١٠) مستندًا إلى ظاهر الآية والدلالة العقلية القولَ الأول، وهو قول أبي مالك الغفاري، وابن إسحاق، وابن جريج، ومقاتل، وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لدلالة قوله: ﴿ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ﴾، على أن ذلك كذلك، وذلك أنهما إنّما شكَتا أنهما لا تسقيان حتى يُصْدِر الرِّعاء، إذ سألهما موسى عن ذودهما غنمَهما، ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناسَ كان لا شكَّ أنهما كانتا تُخبِران عن سبب ذودهما عنها الناس، لا عن سبب تأخر سَقْيِهما إلى أن يُصْدِر الرِّعاء».

قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ.

أي: قالَتَا لموسى: عادَتُنا أنَّنا لا نَسْقي أغنامَنا إلَّا بعدَ أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشِيَهم.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ.

أي: وأبونا كبيرٌ في السِّنّ،[34] يَضعُفُ عن سَقي الغَنَمِ بنَفْسِه.[35]

---

(34) اختُلِف في اسم الرجل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: اسمه: يثرون، ابن أخي شعيب – عليه السلام –.

الثاني: اسمه: يثرى.

الثالث: هو شعيب النبي – عليه السلام –.

وعلَّق ابنُ كثير (١٠/ ٤٥١) على القول الثالث بقوله: «وهذا هو المشهور عند كثيرين».

ووجَّه ابنُ تيمية (٥/ ٧٣) قول مَن قال: إنه شعيب النبي – عليه السلام –.

فقال: «وإنّما شبهة من ظن ذلك أنه وجد في القرآن قصة شعيب وإرساله إلى أهل مدين، ووجد في القرآن مجيء موسى إلى مدين ومصاهرته لهذا، فظن أنه هو».

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٢٢٤) مستندًا إلى عدم وجود الدليل عدم القطع بأيِّ قولٍ منها، وعلَّل ذلك بقوله: «وهذا مما لا يُدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حُجَّتُه، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله –جلَّ ثناؤه–».

وانتقد ابنُ كثير (١٠/ ٤٥٢ بتصرف) القول الثالث مستندًا إلى الدلالة العقلية، والإسرائيليات، وضعف إسناد الأحاديث المفيدة لذلك بأنّ «مِن المقوّي لكونه ليس بشعيب أنّه لو كان إيّاه لأوشك أن ينصَّ على اسمه في القرآن هاهنا، وبأن ما جاء في بعض الأحاديث مِن التصريح بذكره في قصة موسى لم يصِحَّ إسناده، وبأن من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: ثيرون».

وانتقده ابنُ تيمية (٥/ ٧٣ بتصرف) مستندًا إلى الدلالة العقلية، وأقوال السلف، والإسرائيليات قائلًا: «فمَن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال ما ليس له به علم، وما لم يُنقَل عن النبي – ﷺ –، ولا عن الصحابة، ولا عمَّن يحتج بقوله من علماء المسلمين، وخالف في ذلك ما ثبت عن ابن عباس من طريق أبي جمرة، والحسن البصري من طريق قرة بن خالد، مع مخالفته أيضًا لأهل الكتابين؛ فإنّهم مُتَّفِقون على أنه ليس هو شعيب النبي، فإنّ ما في التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه: يثرون، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر في التوراة.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ شعيبًا كان عربيًّا، بل قد روي عن النبي – ﷺ – ذلك، وموسى كان عبرانيًّا؛ فلم يكن يعرف لسانه، وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان.

والقرآن يدل أن الله أهلك قوم شعيب بالظلة، فحينئذٍ لم يبق في مدين من قوم شعيب أحد، وشعيب لا يقيم بقرية ليس بها أحد، وقد ذكروا أنّ الأنبياء كانوا إذا هلكت أممهم ذهبوا إلى مكة فأقاموا بها إلى الموت، كما ذُكِر أن قبر شعيب بمكة، وكذلك غيره، وموسى لما جاء إلى مدين كانت معمورة بهذا الشيخ الذي صاهره، ولم يكن هؤلاء قوم شعيب المذكورين في القرآن ...».

ثم حكى خلافًا في عصا موسى مِن أن الذي أعطاه إياها هو: شعيب.

وقيل: هذا الشيخ.

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24).

وقيل: جبريل.

ثم علّق بقوله: «كل ذلك لا يثبت».

ونقل في نفس المعنى عن السُّدِّيّ أنه قال: «أمر أبو المرأتين ابنته أن يأتي موسى بعصا، وكانت تلك العصا عصا استودعها ملَك في صورة رجل إلى آخر القصة استودعه إياها ملك في صورة رجل، وأن حماه خاصمه، وحكما بينهما رجلًا، وأن موسى أطاق حملها دون حميه، وذكر عن موسى أنه أحق بالوفاء من حميه».

ثم علَّق عليه في سياق انتقاده لقول مَن قال: إن الشيخ الكبير هو شعيب النبي – عليه السلام –.

فقال: «ولو كان هذا هو شعيبًا النبي لم ينازع موسى، ولم يندم على إعطائه إياها، ولم يحاكمه، ولم يكن موسى قبل أن ينبأ أحق بالوفاء منه، فإن شعيبًا كان نبيًّا، وموسى لم يكن نبيًّا، فلم يكن موسى قبل أن ينبأ أكمل من نبي».

وانتقد (٥/ ٧٤) القولَ الأول مستندًا إلى قول ابن عباس، فقال: «ومن قال: إنه كان ابن أخي شعيب، أو ابن عمه.

لم ينقل ذلك عن ثبت، والنقل الثابت عن ابن عباس لا يُعارَض بمثل قول هؤلاء».

(35) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (212/18)، ((معاني القرآن)) للزجاج (139/4)، ((البسيط)) للواحدي (371/17)، ((تفسير البيضاوي)) (175/4)، ((تفسير ابن كثير)) (226/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 614).

قال القرطبي: (أكثَرُ النَّاسِ على أنَّهما ابنتا شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وهو ظاهِرُ القرآن).

((تفسير القرطبي)) (270/13).

وممَّن قال بأنَّه ليس بشُعَيبٍ النَّبِيِّ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (61/1-63)، ((تفسير ابن كثير)) (228/6، 229)، ((تفسير السعدي)) (ص: 615).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (224/18).

قال السعدي: (وهذا الرَّجلُ أبو المرأتينِ؛ صاحِبُ مَدْيَنَ: ليس بشُعَيبٍ النَّبيِّ المعروفِ، كما اشتَهَر عند كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ فإنَّ هذا قَولٌ لم يَدُلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكونُ أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ قد كانت بلَدُه مَدْيَنَ، وهذه القضيَّةُ جرَت في مَدْيَنَ، فأين الملازَمةُ بيْنَ الأمْرَينِ؟! وأيضًا فإنَّه غيرُ معلومٍ أنَّ موسى أدرك زمانَ شُعَيبٍ، فكيف بشَخصِه؟! ولو كان ذلك الرَّجلُ شُعَيبًا لذَكَرَه اللهُ تعالى، ولَسَمَّتْه المرأتانِ.

وأيضًا فإنَّ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أهلك اللهُ قَومَه بتكذيبِهم إيَّاه، ولم يَبْقَ إلَّا مَن آمَنَ به، وقد أعاذ اللهُ المؤمنينَ أن يَرضَوا لِبِنْتَيْ نبيِّهم بمَنعِهما عن الماءِ، وصَدِّ ماشيتِهما حتَّى يأتيَهما رجُلٌ غريبٌ فيُحسِنَ إليهما، ويَسقيَ ماشيتَهما! وما كان شُعيبٌ لِيَرضى أن يرعَى موسى عندَه ويكونَ خادِمًا له، وهو أفضَلُ منه وأعلى درَجةً.

والله أعلم).

((تفسير السعدي)) (ص: 615).

فَسَقَى لَهُمَا.

أي: فسقَى موسى للمَرأتَينِ غنَمَهما بلا أُجرةٍ؛ رأْفةً ورحمةً بهما.

ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ.

أي: ثمَّ انصرَفَ موسى إلى ظِلٍّ هناك.

فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.

أي: فقال: ربِّ، إنِّي محتاجٌ إلى أيِّ شيءٍ أنزلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان.[36]

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25).

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ.

أي: فجاءت إحدى المرأتَينِ إلى موسى، وهي تَمشي مُستحِيةً مُستَتِرةً، غيرَ مُتَبخترةٍ ولا مُبْدِيةٍ زينةً.

قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا.

أي: قالت لِموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يَدْعوك لِيُكافِئَك؛ جزاءً على سَقْيِك أغنامَنا.

---

(36) حكى السمعانيُّ والقرطبيُّ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ طلَبَ مِن الله الطَّعامَ لجُوعِه.
يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (132/4)، ((تفسير القرطبي)) (270/13).

فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

أي: فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وحدَّثَه بأخبارِه وأنبائِه مع فِرعَونَ وقَومِه، وسببِ خُروجِه مِن مِصرَ؛ قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوْتَ مِن فِرعَونَ وقَومِه الظَّالمينَ؛ إذْ لا سُلطانَ لهم بأرضِنا.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (26–28)

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا
الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

غَريبُ الكَلِماتِ:

اسْتَأْجِرْهُ: الاستِئجارُ: طَلَبُ الشَّيءِ بالأُجرةِ، وأصلُ (أجر) هنا: يدُلُّ على الكِراءِ على العَمَلِ.

حِجَجٍ: أي: سِنينَ، جمعُ حِجَّةٍ، وأصلُ (حج): يدُلُّ على قَصدٍ، لَمَّا كان الحَجُّ في السَّنةِ لا يكونُ إلَّا مرَّةً واحدةً، فكأنَّ العامَ سُمِّيَ بما فيه مِن الحَجِّ حِجَّةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26).

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ.

أي: قالت إحدَى المرأتينِ اللَّتينِ سقَى لهما موسى عليه السَّلامُ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غنَمِنا وسَقْيِها.

إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ.

أي: إنَّ خيرَ مَن تَستأجِرُه القَويُّ على عَمَلِه، الأمينُ الَّذي لا يَخونُ ما ائتُمِنَ عليه.[37]

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27).

---

(37) قال ابن الجوزي: (وإنَّما سمَّتْه قويًّا، لرفعِه الحجَرَ على رأسِ البئرِ.
وقيل: لأنَّه استقَى بدَلْوٍ لا يُقِلُّها إلَّا العددُ الكثيرُ مِن الرِّجالِ، وسمَّتْه أمينًا؛ لأنَّه أمَرَها أن تمشيَ خلفَه).
((تفسير ابن الجوزي)) (380/3).
ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (141/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (269/14).
وقيل: الأمانةُ والقوةُ أُخِذَتا مِن سَقْيِه، فأمَّا القوَّةُ فعُرِفتْ مِن نزعِه الدَّلْوَ، وأمَّا الأمانةُ فلِكَونه يَسْقي سقيًا كاملًا، فيدَعُ الغنَمَ حتَّى ترْوَى، ولأنَّه لم يأخذْ شيئًا منها.
يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين– سورة القصص)) (ص: 107).

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ.

أي: قال أبو المرأتَينِ لِموسى: إنِّي أُريدُ أن أزَوِّجَك إحدى ابنتَيَّ هاتينِ على أن ترعى لي الغَنَمَ ثمانيَ سِنينَ.

فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ.

أي: فإنْ أتمَمْتَ رعْيَ أغنامي عَشْرَ سِنينَ، فهذه الزِّيادةُ تفَضُّلٌ وإحسانٌ منك، وليسَت بواجبةٍ عليك.

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ.

أي: وما أُريدُ أن أكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك.

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: ستَجِدُني إن شاء اللهُ مِنَ الصَّالحينَ في حُسنِ المعاملةِ والصُّحبةِ، ولِينِ الجانبِ، والوفاءِ بالمعاهدةِ.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

(28).

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

أي: قال موسى لأبي المرأتينِ: ذلك الذي قُلْتَه وشارَطْتَني عليه قد رَضِيتُ به، وتمَّ فيما بيْني وبيْنَك، لا يَخرُجُ كِلانا عنه؛ لا أنا عمَّا شَرَطْتَ علَيَّ، ولا أنت عمَّا شرَطْتَ على نفْسِك، وعلى كلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه.

أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ.

أيْ: أيَّ أجَلٍ مِن الأجَلَينِ قَضَيتُ -أطولَهما الذي هو العَشرُ، أو أقصَرَهما الَّذي هو الثَّماني- فليس لك أن تَظلِمَني وتعتدِيَ علَيَّ، فتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك.

وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

أي: واللهُ على ما قُلْنا وتعاقَدْنا عليه حَفيظٌ وشاهِدٌ علينا، مُراقِبٌ لنا؛ فليس لأيٍّ مِنَّا الخروجُ عن شَيءٍ ممَّا اتفقْنا عليه.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (29–35)

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا
نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ (30)

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ
بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33)

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

(34)

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ

اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

آنَسَ: أي: أبصَرَ وأحَسَّ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والإحساسُ بالشَّيءِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ.

الطُّورِ: الطُّورُ اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيل: هو الجبلُ المنبِتُ دونَ غيرِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ.

جَذْوَةٍ: أي: قِطعةٍ غَليظةٍ مِنَ الحَطَبِ فيها نارٌ لا لهبَ فيها.

تَصْطَلُونَ: أي: تَستَدفِئونَ، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ.

شَاطِئِ: أي: جانِبِ.

الْبُقْعَةِ: أي: القطعةِ مِنَ الأرضِ المتميِّزةِ عن غيرِها، وأصلُ (بقع): مُخالَفةُ الألوانِ بعضِها بعضًا.

جَانٌّ: جِنسٌ من الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ.

يُعَقِّبْ: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه.

اسْلُكْ: أي: أدْخِلْ، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ.

جَيْبِكَ: أي: جَيبِ قَميصِك، وهو مَدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ.

جَنَاحَكَ: أي: يَدَك، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ.

الرَّهْبِ: أي: الخَوفِ والرَّهبةِ، والرَّهْبةُ والرَّهْبُ: مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ.

فَذَانِكَ: أي: العصا واليدُ، وذانِك: اسمُ إشارةٍ، تثنيةُ (ذاك)، وبالتَّشديدِ (ذَانِّكَ) تثنيةُ (ذلك).

رِدْءًا: أي: مُعينًا، يُقالُ: فلانٌ رِدْءٌ لفُلانٍ: أي: يَنصُرُه ويَشُدُّ ظَهرَه، وأصلُه مِن قَولِهم: ردأتُ الحائِطَ: إذا دعَمْتَه بخَشَبٍ أو نحوِه؛ لئلَّا يَسقُطَ.

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ: أي: سنُعينُك، ونقَوِّيك، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، والعَضُدُ: ما بيْنَ المِرفَقِ إلى الكَتِفِ، وكلُّ مُعِينٍ فهو عضُدٌ، وعاضَدَني فلانٌ، أي: عاوَنَني، وشَدُّ العَضُدِ مَثَلٌ في التَّقويةِ والإعانةِ؛ وذلك أنَّ مَن قَوَّيت عَضُدَه فقد أعَنْتَه.

سُلْطَانًا: أي: حُجَّةً، وبُرهانًا، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29).

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا.

أي: فلمَّا أنهى موسى سَنَواتِ رَعْيِه للغنَمِ، وسار بزَوجِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جِهةِ الجَبَلِ نارًا مُضيئةً.[38]

---

(38) قال السعدي: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ يحتمِلُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ، أو الزائدَ عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: 615) ممن اختار أنَّه قضَى العشرَ سنين: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي، ونسبه ابنُ عثيمين إلى أكثرِ المفسرينَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (343/3)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (5525/8)، ((تفسير ابن كثير)) (231/6)، ((تفسير الشوكاني)) (196/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (13/4)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 134).

وممن اختار هذا القولَ مِن السلف: ابنُ عبَّاسٍ، ثبَت ذلك عنه، وأخرَجه البخاريُّ في ((صحيحه)) (2684) بسندِه عن سعيدِ بنِ جبيرٍ عندَما سألَه يهوديٌّ: أيَّ الأجلينِ قضَى موسَى؟ فسأَل سعيدُ ابنُ جُبيرٍ ابنَ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، فأجابَه بأنَّ موسى عليه السلامُ قضَى أكثرَهما.

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه قد يُستفاد هذا أيضًا مِن الآيةِ الكريمةِ مِن قولِه: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ أي: الأكملَ منهما.

ينظر:((تفسير ابن كثير)) (234/6).

وأيضًا فهذا هو الظنُّ بموسَى عليه السلامُ وكرمِه ووفائِه.

ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 615)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 134).

ويحتملُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ ثماني سنين؛ فإنَّه هو الواجبُ عليه، وموسَى كان في اشتياقٍ إلى بلادِه بمصرَ، وقد قال فيما سبَق معتذرًا أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، وهذه جملةٌ قد تشيرُ إلى أنَّه يريدُ أن يقتصرَ على الأجلِ الواجبِ، وإلا فمِن المعلومِ أنَّه إذا قضَى الأجلَ الواجبَ فإنَّه لا أحدَ يلومُه، أو يعتدي عليه.

ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 134).

قال البقاعي: (والظَّاهِرُ أنَّه مكَث عندَه بعدَ الأجلِ أيضًا مدَّةً؛ لأنَّه عطف بالواو قولَه: وَسَارَ، ولم يجعلْه جوابًا لِلَمَّا).

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (سألَني يهوديٌّ مِن أهلِ الحِيرةِ: أيَّ الأجَلَينِ قضى موسى؟ قلتُ: لا أدري، حتَّى أقدَمَ على حَبرِ العَربِ فأسألَه، فقَدِمتُ فسألتُ ابنَ عبَّاسٍ، فقال: قضى أكثَرَهما وأطْيَبَهما؛ إنَّ رَسولَ الله – ﷺ – إذا قال فعَلَ).[39]

قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ.

أي: قال موسى لامرأتِه: أقيموا مَكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها راجيًا أن أرجِعَ إليكم مِن عندِها بخَبَرٍ عن الطَّريقِ.

أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.

أي: أو آتيكم مِن النَّارِ بقِطعةِ حَطَبٍ مُشتَعلةٍ، راجيًا أن تَستدفِئوا بها مِن البَرْدِ.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30).

((نظم الدرر)) (277/14).

(39) رواه البخاري (2684).

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ.

أي: فلمَّا أتَى موسَى إلى النَّارِ الَّتي أبصَرَها عندَ الجبَلِ، ناداه اللهُ تعالى مِن جانِبِ الوادي الواقِعِ على يمينِ موسى عليه السَّلامُ.(40)

كما قال تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [النازعات: 15، 16].

وقال سُبحانَه: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: 52].

فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ.

أي: ناداه في قِطعةِ الأرضِ الَّتي أحَلَّ اللهُ فيها البَرَكةَ(41) مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ الَّتي في جانِبِ الوادي الأيمَنِ.

أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

---

(40) قال ابنُ عطية (٦/ ٥٩٠): «قوله: ﴿الْأَيْمَنِ﴾ يحتمل أن يكون من اليُمن صفة للوادي أو للشاطئ، ويحتمل أن يكون معادلًا لليسار فذلك لا يوصف به الشاطئ إلا بالإضافة إلى موسى في استقباله مهبط الوادي، أو يعكس ذلك، وكل ذلك قد قيل».

وعلَّق ابنُ تيمية (٥/ ٧٦) قائلًا: «وإذا كان المنادي هو الله رب العالمين، وقد ناداه مِن موضع معين وقرَّبه إليه؛ دل ذلك على ما قاله السلف مِن قربه ودُنُوّه من موسى – عليه السلام –، مع أن هذا قرب ممّا دون السماء».

(41) قال الواحدي: (الْمُبَارَكَةِ بتكليمِ الله سُبحانَه فيها موسى عليه السَّلامُ، وإتيانِه النُّبوَّةَ).

((الوجيز)) (ص: 818).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (287/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (113/20).

أي: نادَى اللهُ موسَى فقال له: يا موسَى، إنَّ الَّذي يُكَلِّمُك هو أنا اللهُ ربُّ جميعِ الخلائِقِ، الَّذي لا إلهَ غيري.

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ (31).

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ.

أي: واطرَحْ عصاك الَّتي معك على الأرضِ.

فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ.

أي: فألقَى موسَى عصاه، فلمَّا رآها تتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ كأنَّها حيَّةٌ في سُرعةِ حَرَكتِها، وشِدَّةِ اهتزازِها؛ هرَبَ منها مُسرِعًا ولم يَرجِعْ أو يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه.(42)

يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ.

أي: قال اللهُ له: يا موسى، عُدْ إلى مكانِك ولا تخَفْ؛ إنَّك في أمنٍ مِن أن ينالَك مَكروهٌ.

---

(42) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥٩٠) أن العصا حين ألقاها موسى – عليه السلام – انقلبت حية عظيمة، ولها اضطراب الجانّ، وهو صغير الحيات، فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانّ، ثم قال: «وقالت فرقة: بل الجانّ يعم الكبير والصغير، وإنما شبه بالجان جملة العصا لاضطرابها فقط».

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32).

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

أي: أدخِلْ يَدَك في فَتحةِ قَميصِك –وهي الفتحةُ العُلويَّةُ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ– فإذا أخرَجْتَها تخرُجُ بيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ!

وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ.

أي: واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابَك مِن الخَوفِ.

فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ.

أي: فهاتانِ آيتانِ وحُجَّتانِ مِن رَبِّك –تَحَوُّلُ عَصاكَ إلى حَيَّةٍ، وخُروجُ يَدِك مِنِ جَيبِك بَيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ– تَدُلَّانِ على الحَقِّ، أُرسِلُك بهما إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه وكُبَرائِهم.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ.

أي: أُرسِلُك بهاتينِ الآيتَينِ؛ لأنَّ فِرعَونَ ومَلأَه قَومٌ مَطبوعونَ على الكُفرِ، مُتَّصِفونَ بالخُروجِ عن طاعةِ اللهِ.

كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ [النمل: 12].

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33).

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي قَتلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ -إنْ رأَوْني وحيدًا بلا ظَهيرٍ ومُعِينٍ يُبَيِّنُ لهم ما أُريدُ مِن القَولِ- أن يَقتُلوني قبلَ أن أتمكَّنَ مِن دَعوتِهم إلى الحَقِّ.[43]

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34).

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي.

أي: وأخي هارونُ هو أحسَنُ مِنِّي بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معيَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، ووزيرًا ومُعِينًا لي على دَعوتِهم، يُبَيِّنُ ما أقولُ لهم.

---

(43) قال الرازي: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ المرادَ منه قَتْلُ ذلك القِبطيِّ بذلك الوَكزِ).
((تفسير الرازي)) (176/10).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ موسى: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي *كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا [طه: 27 – 35].

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ.

أي: أيِّدْني بأخي هارونَ؛ لأنِّي أخافُ ألَّا يُصَدِّقَني فِرعَونُ وقومُه.

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ [الشعراء: 12، 13].

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35).

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ.

أي: قال اللهُ لِموسى: سنُقوِّيك ونُعينُك بإرسالِ أخيك معك.

وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا.

أي: ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، ومَهابةً في قُلوبِهم منكما، فيكونُ لكما الظُّهورُ والغَلَبةُ عليهم، وتمتَنِعانِ منهم؛ بسَبَبِ آياتِنا، فلا يؤذونَكما.

أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ

أي: أنتما وأتْباعُكما المنصورونَ على فِرعَونَ ومَلَئِه، القاهِرونَ لهم.

كما قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

وقال سُبحانَه: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: 21].

سورةُ القَصَصِ

الآيات (36–42)

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ
لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ
(38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)
فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

غَريبُ الكَلِماتِ:

عَاقِبَةُ الدَّارِ: أي: العاقِبةُ المحمودَةُ أو خاتمةُ الخَيرِ، وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه.

صَرْحًا: أي: قَصرًا عاليًا مُرتفِعًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه.

فَنَبَذْنَاهُمْ: أي: فألقَيْناهم، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرحِه.

الْيَمِّ: البحرِ.

الْمَقْبُوحِينَ: أي: المَوسُومينَ بحالةٍ مُنكَرةٍ، أو المُبعَدِينَ المَطرودينَ، أو المُشَوَّهينَ، والقبيحُ: ما يَنْبو عنه البصرُ مِن الأعيانِ، وما تَنبو عنه النَّفْسُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ، والقبحُ: الإبعادُ، وأصلُ (قبح): يدُلُّ على خلافِ الحُسْنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36).

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى.

أي: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمعجزاتِ والحُجَجِ الظَّاهِرةِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ، قال فِرعَونُ وقَومُه: ما هذا الَّذي جاء به موسى إلَّا سِحرٌ باطِلٌ افتراه واختَلَقه؛ فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، وليس مُعجِزةً إلهيَّةً كما يزعُمُ!

كما قال تعالى: قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى [طه: 57].

وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ.

أي: وما سَمِعْنا مَن يدعو آباءَنا إلى مِثلِ ما تَدعو إليه.

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37).

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ.

أي: وقال موسى مُجيبًا لهم: رَبِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والرَّشادِ مِن عندِه: نحنُ أو أنتم.

وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ.

أي: وربِّي أعلَمُ بمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدَّارِ الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أو أنتم.

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّه لا يفوزُ الظَّالِمون بالعاقبةِ الحَميدةِ والبَقاءِ في النَّعيمِ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي.

أي: وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: يا أيُّها الأشرافُ، لا أعلَمُ أنَّ لكم معبودًا غيري كما يزعُمُ موسى؛ فلا إلهَ في الحقيقةِ سِوايَ!

كما قال تعالى: فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [النازعات: 23، 24].

فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا.

أي: قال فِرعَونُ: فأوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ؛ لِتَجفيفِه، فيكونَ آجُرًّا تبني لي به بناءً مُرتَفِعًا.

كما قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا [غافر: 36، 37].

لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى.

أي: ابنِ لي صَرْحًا لعلِّي أنظُرُ إلى معبودِ موسى الَّذي يَدْعونا إلى عبادتِه، وأقِفُ على شَأنِه.

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

أي: وإنِّي لأظُنُّ موسى كاذِبًا في زَعمِه أنَّ للخَلقِ إلهًا غيري.

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39).

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: واستعظَمَ فِرعَونُ وجُنودُه وتعالَوا في الأرضِ[44] عن اتِّباعِ الهُدى؛ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ حُجَّةٍ أو بُرهانٍ.

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ.

---

(44) المرادُ بالأرضِ: الأرضُ المعهودةُ، أي: أرضُ مِصرَ.
وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين، ونسبه الألوسيُّ للأكثرينَ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/256)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5536)، ((البسيط)) للواحدي (17/400)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/385)، ((تفسير النسفي)) (2/644)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 513)، ((تفسير أبي السعود)) (7/14)، ((تفسير الشوكاني)) (4/200)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 191)، ((تفسير الألوسي)) (10/290).

أي: وظنَّ فِرعَونُ وجُنودُه أنَّهم لا يُبعَثونَ بعدَ الموتِ فيَرجِعونَ إلينا للحِسابِ والجَزاءِ؛ فلذا تجَرَّؤوا على الاستكبارِ في الأرضِ بغيرِ الحَقّ.

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40).

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ.

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه أخْذَ قَهرٍ ونقمةٍ، فطرَحْناهم في البَحرِ، فأغرَقْناهم أجمَعينَ.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ.

أي: فانظُرْ كيف كان آخِرُ أمرِ فِرعَونَ وقَومِه الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رَسولِه؛ كان شَرًّا وخسارةً وهلاكًا لهم!

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41).

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.

أي: وجعَلْنا فِرعَونَ وقَومَه في الدُّنيا زُعماءَ مَتبوعينَ على الكُفرِ، يَدْعُونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ.

أي: ويَومَ القيامةِ لا يَنصُرُ أحَدٌ فِرعَونَ وقَومَه، ولا يدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ تعالى.

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42).

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً.

أي: وجعَلْنا اللَّعنةَ تَتبَعُهم بعْدَ هَلاكِهم؛ يَلعَنُهم اللهُ، ويَلعَنُهم العِبادُ؛ فهُم مَطرودونَ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى.

كما قال تعالى: وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً [هود: 99].

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ.

أي: ويومَ القيامةِ هم مِنَ المُهلَكِينَ المَقوتينَ، المُبعَدين المَخْزِيّينَ، المُستقذَرةِ أفعالُهم، الشَّنيعةِ أحوالُهم وأقوالُهم، مع قُبحِ وُجوهِهم وأشكالِهم.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (43-46)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْقُرُونَ: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

بَصَائِرَ: أي: ضياءً، وقيل: عبرةً، وقيل: دلالاتٍ، جمعُ بصيرةٍ؛ سُمِّيَ بصيرةً اشتِقاقًا مِن بَصَرِ العَينِ.

ثَاوِيًا: أي: مُقيمًا، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ، وأصلُه: يدُلُّ على الإقامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى.

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بَعدِ ما أهلَكْنا بعذابِ الاستِئصالِ الأُمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبتْ رُسُلَها؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وغيرِهم.

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أي: آتَيْنا موسى التَّوراةَ ضِياءً لبني إسرائيلَ يُبصِرون به ما ينفَعُهم، وهُدًى إلى الحَقِّ مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً لهم؛ لِيَتذكَّروا ويَتَّعِظوا.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44).

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ.

أي: وما كنتَ حاضِرًا –يا محمَّدُ– في المكانِ[45] الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه.

(45) قال أبو حيَّان: (بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ: مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه عندَ قَومٍ، ومِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مقامَه عندَ قومٍ.

فعلى القَولِ الأوَّلِ أصْلُه: بالجانبِ الغربيِّ، وعلى الثَّاني أصْلُه: بجانبِ المكانِ الغربيِّ، والتَّرجيحُ بيْنَ القولَينِ مذكورٌ في النَّحوِ.

والْغَرْبِيِّ قال قَتادةُ: غَرْبِيّ الجبَلِ.

وقال الحسَنُ: بعَثَ اللهُ موسى بالغَربِ.

وقال أبو عُبَيدةَ: حيثُ تَغرُبُ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ.

وقيل: هنا جبلٌ غربيٌّ.

وقيل: الغربيّ مِنَ الوادي.

وقيل: مِنَ البحرِ).

((تفسير أبي حيان)) (308/8).

ممَّن اختار أنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، والمرادُ: الجانبُ الغَربيُّ: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (130/20).

ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (463/5).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: بجانبِ غَربيِّ الجبلِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (347/3)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (595/2)، ((تفسير ابن جرير)) (259/18)، ((تفسير السمرقندي)) (610/2)، ((تفسير الثعلبي)) (251/7).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بجانبِ الجبلِ الغربيِّ، فيكونُ مِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ صفتِه قيامَه: الزَّجَّاجُ، والرسعنيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (146/4)، ((تفسير الرسعني)) (545/5)، ((تفسير القرطبي)) (291/13)، ((تفسير ابن كثير)) (240/6)، ((تفسير الشوكاني)) (202/4).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (263/15).

كما قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [القصص: 30].

وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

أي: وما كُنتَ مُشاهِدًا بعينيك تفاصيلَ ما جرَى هنالِك.

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45).

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ.

أي: ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسيَ عَهدُ الله، وتُرِك أمْرُه، واندرَس العِلمُ؛ فأرسَلْنا محمَّدًا - ﷺ -.

وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- مقيمًا ومُستقِرًّا زمنًا طويلًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خبرَ ما وقعَ مِن شأنِ موسى في مَدْيَنَ.

وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ.

أي: لم يقَعْ ذلك، ولكِنَّا أرسَلْناك وأوحَيْنا إليك في القُرآنِ بتلك الأخبارِ الماضيةِ.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجَبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه.

كما قال تعالى: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: 52].

وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.

أي: ما كُنتَ حاضِرًا بجانِبِ الطُّورِ، ولكِنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا بك وبالعِبادِ.

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ.

أي: لتُحذِّرَ العَرَبَ الَّذينَ لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك، مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ.

كما قال تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [السجدة: 2، 3].

وقال عزَّ وجلَّ: لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ [يس: 6].

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أي: لِيَتذكَّروا خطَأَ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ، ويتَّعِظوا ويُنيبوا إلى اللهِ؛ فيُطيعوه ويَعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (47–50)

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ
(48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

تَظَاهَرَا: أي: تعاوَنا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47).

أي: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشرِكي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم قبْلَ إرسالِك -يا محمَّدُ-، فيقولوا محتَجِّينَ: يا ربَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعَذِّبَنا؛ فنتَّبعَ آياتِ القُرآنِ، ونكونَ مِنَ الموحِّدينَ المؤمِنينَ بك وبرَسولِك- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، ولكِنَّا أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم بإرسالِك إليهم.

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى [طه: 134].

وقال سُبحانَه: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء: 165].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: 15].

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48).

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ قُرَيشٍ القُرآنُ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ - ﷺ -، قالوا: هلَّا أُوتيَ مُحمَّدٌ القُرآنَ جُملةً واحِدةً، كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجِزاتٍ كالَّتي أُوتِيَها موسى؛ مِثلُ العصا الَّتي تَنقَلِبُ حَيَّةً، واليَدِ الَّتي تَخرُجُ بيضاءَ!

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ.

أي: أوَلَمْ يَكفُرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ؟! فكيف يَطلُبونَ مِن مُحمَّدٍ مِثلَ ما أُوتيَ موسى؟!

قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا.

أي: قال كُفَّارُ قُرَيشٍ: التَّوراةُ والقُرآنُ سِحرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كُلٌّ منهما الآخَرَ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ سِحْرَانِ على معنى: أنَّهم يَقصِدون التَّوراةَ والقُرآنَ.[46]

2- قِراءةُ سَاحِرَانِ على معنى: أنَّهم يَقصِدونَ موسى ومحمَّدًا، وقيل: موسى وهارونَ. عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.[47]

وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ لا نُؤمِنُ بهما.

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49).

---

(46) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكِسائي، وخلَف.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/341، 342).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (18/269)، ((معاني القرآن)) للزجاج (4/148)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 278)، ((تفسير ابن كثير)) (6/242).

(47) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/342).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (2/306)، ((تفسير ابن جرير)) (18/265)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 278).

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لكُفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتُوا إذَن كِتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ أكثَرَ هِدايةً للحَقّ منهما؛ فأعمَلَ به.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: إنْ كُنتُم صادقينَ في دَعْواكم أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غَيرِهما!

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50).

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

أي: فإنْ لم يأتِ الزَّاعِمونَ أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ بكتابٍ أهدَى منهما، ويتَّبِعوا الحَقَّ؛ فاعلَمْ –يا مُحمَّدُ– أنَّهم يُؤْثِرونَ أهواءَهم وما تستَحسِنُه نفوسُهم ويُحَبِّبُه لهم الشَّيطانُ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، ولا حُجَّةَ لهم على ما يَزعُمونَ مِنَ الكَذِبِ والباطِلِ.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ.

أي: ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقّ ممَّن اتَّبَع هوى نفْسِه، وتَرَك الهُدى بغيرِ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِن عندِ اللهِ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ والهُدى القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم وغَيرَهم، وصار ذلك وَصفًا لازِمًا لهم، ومِن جُملةِ ذلك الانهِماكُ في مُتابعةِ الهوى.

كما قال تعالى: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة: 145].

سورةُ القَصَصِ

الآيات (51–56)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ
(53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
(54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا
نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ (56)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ: أي: أنزَلْنا القرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، فاتَّصَل عندَهم، وأصلُ (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ حتَّى يَتعلَّقَ به.

وَيَدْرَءُونَ: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درء): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ.

اللَّغْوَ: أي: الباطِلَ مِنَ الكَلامِ، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)﴾.

أي: ولقد أتبَعْنا القُرآنَ بَعضَه بَعضًا وشَيئًا فشَيئًا لكُفَّارِ العَربِ وأهلِ الكِتابِ، وبَيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والمواعِظَ، وأخبارَ الماضينَ؛ لِيَعتبِروا ويتَّعِظوا.[48]

عن رِفاعةَ القُرَظيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (نَزَلت هذه الآيةُ في عَشَرةِ رَهْطٍ أنا أحدُهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾).[49]

---

(48) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥٩٨) أنّ جمهور المفسرين ذهب إلى أن هذا التوصيل الذي وصل لهم القول معناه: وصل المعاني من الوعظ والزجر وذكر الآخرة وغير ذلك.

ثم علّق عليه بقوله: «وهذا المعنى تقديره: ولقد وصلنا لهم قولًا تضمن معاني من اهتدى».

ثم ذكر قولًا آخر: أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ.

ثم علّق عليه بقوله: «فالمعنى: ولقد وصلنا لهم قولًا مُعْجِزًا دالًّا على نبوتك».

(49) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (53/5) (4563)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (2732) واللَّفظُ لهما، وابن مَنْدَه في ((معرفة الصحابة)) (ص: 632) باختلاف يسير.

وثّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (91/7)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ العراقي في ((طرح التثريب)) (94/7)، وجوَّد إسنادَه السيوطي في ((الدر المنثور)) (422/6)، والشوكانيُّ في ((تفسيره)) (252/4).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52).

أي: الَّذين آتيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قبْلِ القُرآنِ[50] يُؤمِنونَ بالقُرآنِ.[51]

كما قال تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ [البقرة: 121].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [آل عمران: 199].

---

(50) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥٩٨) في عود الضمير في ﴿قبله﴾ احتمالين: الأول: أن يعود على النبي – ﷺ –.
الثاني: أن يعود على القرآن.
ثم رجّح مستندًا إلى السياق القولَ الثاني بقوله: «وما بعد يؤيد هذا».

(51) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/276)، ((تفسير القرطبي)) (13/296، 297)، ((تفسير ابن كثير)) (6/244)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/314)، ((تفسير السعدي)) (ص: 620)، ((تفسير ابن عاشور)) (20/143)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة القصص)) (ص: 245–249).

قال الشنقيطي: (...
قد كان في اليهودِ قومٌ هم على دِينِ موسى حتَّى ماتوا على ذلك، وقومٌ كانوا على دين موسى وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.
وهؤلاء الَّذين كانوا على دينِ موسى وأدركوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنوا به هم الَّذين ذكَر الله في سورةِ «القصص» أنَّ لهم أجْرَهم مرَّتَينِ: أجْرَ إيمانِهم الأوَّلِ، وأجرَ إيمانِهم الثَّاني).
((العذب النمير)) (4/294).

قال ابن الجوزي: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وفيهم ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّهم مؤمنو أهلِ الكتابِ، رواه العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال مجاهدٌ.
والثاني: مسلمو أهلِ الإنجيلِ...
والثالث: مسلمو اليهودِ، كعبدِ الله بنِ سلامٍ، وغيرِه، قاله السُّديُّ).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/387).

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53).

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا.

أي: وإذا سَمِعوا القُرآنَ يُتلَى عليهم قالوا: آمَنَّا بالقُرآنِ؛ لأنَّه حَقٌّ نزَل مِن عندِ رَبِّنا بالخَبرِ الصَّادِقِ، والحُكْمِ العادِلِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ [المائدة: 83، 84].

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ.

أي: إنَّا كنَّا مِن قبْلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ مُوحِّدينَ للهِ، مُنقادينَ لطاعتِه، مُؤمنينَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ؛ فلهذا بادَرْنا إلى الإذعانِ للحَقِّ، وآمَنَّا بهذا القُرآنِ.

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54).

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا.

أي: أولئك الَّذين تقدَّمَت صِفتُهم -الَّذين يُؤمنونَ بكِتابِهم وبالقُرآنِ-، يؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا؛ بسبَبِ صَبرِهم على العَمَلِ بهما، وعلى ما يَلْقَونَه مِنَ الأذَى.

عن أبي موسى الأَشْعَريِّ رضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((ثَلاثةٌ يُؤْتَونَ أجْرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَك النَّبيَّ – ﷺ – فآمَنَ به، واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ، وعبدٌ مَمْلوكٌ أدَّى حَقَّ اللهِ تعالى وحَقَّ سَيِّدِه، فله أجْرانِ، ورجُلٌ كانت له أَمَةٌ فغَذَّاها فأحسَنَ غِذاءَها، ثمَّ أدَّبَها فأحسَنَ أدبَها، ثمَّ أعتَقَها وتزَوَّجَها؛ فله أجْرانِ)).[52]

وعن أبي سُفيانَ رضيَ اللهُ عنه: أنَّه جاء في الكتابِ الَّذي بعَثَه النَّبيُّ – ﷺ – إلى هِرَقْلَ: ((بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِه إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ: سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أمَّا بعْدُ، فإنِّي أدعوك بدِعايةِ الإسلامِ؛ أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتينِ...)) الحديث.[53]

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ.[54]

---

(52) رواه البخاري (97)، ومسلم (154) واللفظ له.

(53) رواه البخاري (7) واللفظ له، ومسلم (1773).

(54) قيل: المعنى: يَدفَعونَ بما يَعملون مِن الحَسَناتِ ما سبَق أنْ عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/280)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 822).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ؛ فقال: يَدفعونَ بشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ الشِّركَ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/539).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يُقابِلونَ المُسيءَ إليهم بإساءةٍ، ولكِنْ يُقابِلونَه بالإحسانِ إليه بالقَولِ الحميدِ، والفِعلِ الجميلِ.

كما قال تعالى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: 34، 35].

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.

أي: ومِمَّا رَزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ.

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/244)، ((تفسير السعدي)) (ص: 620).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَير، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (9/2991).

وممَّن ذهب إلى الجمعِ بيْنَ كِلا المعنَيَينِ: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 263).

وقال ابنُ عجيبة: (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ يَدفعونَ الخَصلةَ القَبيحةَ بالخَصلةِ الحَسَنةِ؛ يَدفعونَ الأذى بالسِّلمِ، والمعصيةَ بالطَّاعةِ). ((البحر المديد)) (4/261).

قال ابن عثيمين: (والحَسَنةُ الَّتي تَدرأُ السَّيِّئةَ تنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن باب المُقابَلة، وقِسمٌ آخَرُ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن بابِ المحوِ والإزالةِ؛ فإن كانت الحسنةُ المَدْروءُ بها السَّيِّئةُ مِن بابِ التَّوبةِ، فهو مِن بابِ المحوِ والإزالةِ، وإن كانت حسنةً أخرى، كما لو دفعَ السَّيِّئاتِ بالصَّلاةِ، كما في قوله تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود: 114]؛ فهذا الدَّرءُ مِن بابِ المُقابَلة، أي: إنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ يُقابَلُ بعقوبةِ السَّيِّئةِ مِن بابِ الموازَنة؛ فإذا رجَحَ ثَوابُ الحسنةِ انمَحَت السَّيِّئةُ، وإلَّا فلا.

والأوَّلُ أكمَلُ؛ لأنَّه إذا حصَل صارت الحَسَنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفعةٍ في الدَّرجاتِ، وليست بمقابَلةٍ بالسَّيِّئةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: 262).

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ.

أي: وإذا سَمِعوا الكَلامَ الباطِلَ[55] أعرَضوا عن الاستِماعِ والإصغاءِ له، ولم يَلتَفِتوا إليه، ولم يَرُدُّوا على مَن آذاهم بالكَلامِ القَبيحِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا [الفرقان: 72].

وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ.

أي: وقالوا: لنا دِينُنا الَّذي رَضِينا به لأنفُسِنا، ولكم دِينُكمُ الَّذي رَضيتُم به لأنفُسِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا مِنَّا على عَمَلِه ثَوابًا أو عِقابًا، لا على عَمَلِ غَيرِه.

كما قال تعالى: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ [البقرة: 139].

وقال سُبحانَه: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [الكافرون: 6].

---

(55) قال ابن عطية: (اللَّغوُ سَقَطُ القولِ، والقولُ يَسقُطُ لِوُجوهٍ يَعِزُّ حصْرُها؛ فالفُحشُ لَغْوٌ، والسَّبُّ لغوٌ، واليمينُ لغوٌ –حسَبَ الخِلافِ فيها–، وكلامُ مُستمِعِ الخُطبةِ لغوٌ.

والمرادُ مِن هذا في هذه الآيةِ ما كان سبًّا وأذًى، فأدَبُ أهلِ الإسلامِ الإعراضُ عنه).

((تفسير ابن عطية)) (292/4).

وقال ابن عثيمين: (الأصحُّ أنَّه يَشملُ كلَّ كلامٍ لا خيرَ فيه، سواءٌ كان فيه أذًى وشرٌّ، أم لم يكُنْ).

((تفسير ابن عثيمين– سورة القصص)) (ص: 270).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (316/14).

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ.

أي: أنتم سالِمونَ مِن أن نُؤذِيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ، لا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ المُخالِفينَ للحَقِّ، والمُعتَدِينَ على الخَلقِ؛ ولا نُصاحِبُهم، ولا نُحِبُّ طَرِيقَتَهم.

كما قال تعالى في صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا [الفرقان: 63].

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56).

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن المُسَيِّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أبا طالبٍ لَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ دخَل عليه النَّبيُّ – ﷺ – وعِندَه أبو جَهلٍ، فقال: أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ كَلِمةً أُحاجُّ لك بها عندَ اللهِ، فقال أبو جَهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، تَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟! فلَمْ يَزالَا يُكَلِّمانِه حتَّى قال آخِرَ شَيءٍ كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ – ﷺ –: لَأَستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنه، فنزلَتْ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [التوبة: 113]، ونزلَتْ: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)).[56]

---

(56) رواه البخاري (3884) واللفظ له، ومسلم (24).

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ – لعَمِّه عندَ الموتِ: ((قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، أَشهَدْ لك بها يومَ القيامةِ، فأبَى، فأنزَل اللهُ: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ الآيةَ)).(57)

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ.

أي: إنَّك –يا مُحمَّدُ– لا تُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن أحبَبْتَه.(58)

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

أي: ولكِنَّ اللهَ وحْدَه هو مَن يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن يَشاءُ أن يَهدِيَه.

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ [النحل: 37].

---

(57) رواه مسلم (25).

(58) قال الزجاج: (أجمَع المفَسِّــرون أنَّها نزلَتْ في أبي طالبٍ، وجائزٌ أن يكونَ ابتداءُ نُزولِها في أبي طالبٍ، وهي عامَّةٌ؛ لأنَّه لا يَهدي إلَّا اللهُ، ولا يُرشِدُ ولا يوفِّقُ إلَّا هو، وكذلك هو يُضِلُّ مَن يشاءُ).

((معاني القرآن وإعرابه)) (4/149).

وقال ابنُ حجرٍ: (لم تختلِفِ النقلةُ في أنَّها نزَلت في أبي طالبٍ، واختلَفوا في المرادِ بمتعلقِ أَحْبَبْتَ؛ فقيل: المرادُ: أحببْتَ هِدايتَه، وقيل: أحبَبْتَه هو لقرابتِه منك).

((فتح الباري)) (8/506).

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

أي: واللهُ أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستَحِقُّ الهِدايةَ ويَقبَلُها؛ فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (57–59)

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ
كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ
مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ
رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا
وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)

غَريبُ الكَلِماتِ:

نُتَخَطَّفْ: أي: نُؤخَذْ لقِلَّتِنا، والتَّخَطُّفُ: الانتِزاعُ بسُرعةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على استِلابٍ في خِفَّةٍ.

يُجْبَى: أي: يُجمَعُ ويُجلَبُ، مِن قَولِهم: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ: إذا جمَعْتَه فيه، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُه: يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ.

بَطِرَتْ: أي: أشِرَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، وأصلُ (بطر): يدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمةِ.

أُمِّهَا: أي: أصلِها وأعظمِها، قيل: المرادُ مكَّةُ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ، وأصلُ (أمم) هنا: الأصلُ والمرجعُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57).

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنْ نُؤمِنْ بك –يا مُحَمَّدُ– فنَعبُدِ اللهَ وَحْدَه، ينتزِعْنا مُشرِكو العَرَبِ سَريعًا مِن مكَّةَ، فيُخرِجونا منها أو يأْسِرونا أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم.(59)

أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا.

أي: أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلَدًا حرَّمْنا على النَّاسِ انتِهاكَ حُرمتِه بقِتالٍ وغيرِه، فجعَلْناه آمِنًا؟

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: تُجمَعُ وتُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ الكَثيرةُ المُتنَوِّعةُ مِن البُلدانِ المُختَلِفةِ.

---

(59) قال ابنُ جُزَي: (والهُدى هو الإسلامُ، ومعناه: الهُدى على زَعمِك.
وقيل: إنَّهم قالوا: قد عَلِمْنا أنَّ الَّذي تقولُ حَقٌّ، ولكِنْ إنِ اتَّبَعْناك تَخَطَّفَتْنا العرَبُ، أي: أهلَكونا بالقِتالِ؛ لِمُخالَفةِ دينِهم).
((تفسير ابن جزي)) (116/2).

رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا.

أي: عَطاءً خاصًّا مِن عِندِنا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلَمونَ أنَّ مَن رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضَى حالَ كُفرِهم يَرزُقُهم لو أسلَموا، ويمنَعُ الكُفَّارَ عنهم حالَ إسلامِهم.

كما قال تعالى: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: 3، 4].

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58).

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا.

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي طغَى أهلُها بالنِّعَمِ وتكَبَّروا بها، وألْهَتْهم وأشْغَلَتْهم عن شُكرِ رَبِّهم؛ فكَفَروا به، فأهلَكَهم وأزال عنهم نِعَمَه!

كما قال تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [النحل: 112، 113].

فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: فتلك بُيوتُ القَومِ الَّذين أهلَكْناهم لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلَّا قليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقِيَ منها.

وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ.

أي: وكُنَّا نحنُ الوارِثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59).

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.

أي: ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللهِ الدَّالَّةَ على صِدقِ رِسالتِه، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم.(60)

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ.

أي: وما كُنَّا لِنُهلِكَ القُرى إلَّا وأهلُها مُستَحِقُّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلمِ -بالكُفرِ وغيرِه- وذلك مِن بَعْدِ الإعذارِ إليهم.

كما قال تعالى: ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [الأنعام: 131].

وقال سُبحانَه: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [هود: 117].

---

(60) قال ابنُ عطية (٦/ ٦٠١): «إن كانت الإبادة للْقُرى بالإطلاق في كل زمن فأُمها في هذا الموضع: عظيمها وأفضلها، الذي هو بمثابة مكة في عصر محمد - ﷺ -، وإن كانت مكة أم القرى كلها أيضًا من حيث هي أول ما خلق من الأرض ومن حيث فيها البيت».

وذكر ابنُ كثير (٦/ ٢٤٨) القول بأن أم القرى هي مكة، ثم ذكر قولًا آخر، فقال: «وقيل: المراد بقوله: ﴿حتى يبعث في أمها﴾ أي: أصلها وعظيمتها، كأمهات الرساتيق والأقاليم.

حكاه الزمخشري وابن الجوزي، وغيرهما».

ثم علّق عليه بقوله: «وليس ببعيد».

سورةُ القَصَصِ

الآيات (60–67)

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)
قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا
كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ
يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَمَتَاعُ: المتاعُ: المتعةُ، والانتفاعُ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خيرٍ.

أَغْوَيْنَا: أي: أضْلَلْنا، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ.

فَعَمِيَتْ: أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60).

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا.

أي: وما آتاكم اللهُ مِن الأموالِ والأولادِ وغيرِها مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ، فإنَّما هو مَتاعٌ تتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، وتتزيَّنونَ به فيها، ثمَّ يَزولُ عنكم سريعًا، ولا يَنفَعُكم بشَيءٍ.

كما قال تعالى: مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ [النحل: 96].

وقال سُبحانَه: وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ [الرعد: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا [سبأ: 37].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إصبعَه هذه في اليَمِّ؛ فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[61].

(61) رواه مسلم (2858).

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

أي: وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ أفضَلُ وَصفًا وكَمِّيَّةً مِن مَتاعِ الدُّنيا وزينتِها، وأدوَمُ لأهلِه؛ لأنَّه ثوابٌ لا يَنفَدُ.

كما قال تعالى: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ [آل عمران: 198].

وقال سُبحانَه: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16، 17].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى [الضحى: 4].

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أفلا تَتدَبَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعُقولِكم، فتَعرِفونَ بها أنَّ ثوابَ الآخِرةِ الباقيةِ خَيرٌ مِن نَعيمِ الدُّنيا الفانيةِ؟!

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61).

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ.

أي: أفمَنْ وعَدْناه على طاعتِه إيَّانا الجنَّةَ، فآمَنَ بما وعَدْناه وأطاعَنا، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائِرٌ إلى ثَوابِ اللهِ في الآخرةِ لا مَحالةَ.

كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ.

أي: كمَن هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ ووَعْدِه ووَعيدِه، مُؤْثِرٌ اللَّذَّةَ العاجِلةَ على الآجِلةِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحَسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ إذا ورَدَ على اللهِ مِنَ المُحضَرينَ للجَزاءِ؟!

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62).

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ فيَقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم؟

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63).

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا.

أي: قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التَّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مِثلَما كنَّا ضالِّين.

تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ.

أي: تبرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا ومِمَّا اختارُوه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم.

كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 165 – 167].

وقال سُبحانَه: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81، 82].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 6].

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64).

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ.

أي: وقيلَ للمُشرِكينَ: ادعُوا الَّذينَ كُنتُم تَعبدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركاءُ لله؛ لِيَنفعوكم ويَنصُروكم.

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ.

أي: فدعاهم المُشركونَ فلَمْ يُجيبوهم، ولم يَنفعوهم بشَيءٍ.

وَرَأَوُا الْعَذَابَ.

أي: ورأى المُشرِكونَ بأعيُنِهم -التَّابعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف: 52، 53].

لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ.

أي: لو أنَّ المُشرِكينَ كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ؛ لَمَا اتَّبعوا شُركاءَ مِن دونِ اللهِ، ولَمَا رأَوُا العَذابَ في الآخرةِ.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65).

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أجَبْتُمُ المرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم؟

كما قال تعالى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ [الأعراف: 6].

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66).

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ.

أي: فخَفِيَت الحُجَجُ على المُشركِينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صَحيحٍ حينَ يَسألُهم اللهُ عن حالِهم في الدُّنيا مع الرُّسلِ، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ.

فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ.

أي: فلا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألَهم عنه.[62]

---

(62) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٦٠٤) في قوله: ﴿فهم لا يتساءلون﴾ احتمالين، فقال: «وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره: بالأرحام والأنساب الذي عُرْفه في الدنيا أن يُتساءل به؛ لأنهم قد أيقنوا أنّ كلهم لاحيلة له ولا مكانة.

ويحتمل أن يريد: أنهم لا يتساءلون عن الأنباء؛ لتيقن جميعهم أنه لا حجة لهم».

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67).

أي: فأمَّا مَن تاب مِنَ الشّرك، وآمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائِزينَ النَّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّةِ.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (68–70)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ
يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْخِيَرَةُ: أي: الاختيارُ، وأصلُ (خير): العَطفُ والميلُ.

تُكِنُّ: أي: تُخفي، وتَستُرُ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

أي: وربُّك –يا مُحمَّدُ– يخلُقُ ما يَشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، فيَصطفي مَن يشاءُ للرِّسالةِ والهِدايةِ، ويُفضِّلُ مَن يشاءُ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، والأمكِنةِ والأزمِنةِ، وغَيرِ ذلك.(63)

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

وقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

---

(63) اخْتُلِفَ في قوله تعالى: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشآءُ ويَخْتارُ﴾ على وجهين: أحدهما: أنّ المراد: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ مِن خلقه، ﴿ويَخْتارُ﴾ مَن يشاء لطاعته.

وهو معنى قول ابن عباس.

والثاني: أنّ المراد: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ من الخلق، ﴿ويَخْتارُ﴾ من يشاء لنبوته.

وهو قول مقاتل، ويحيى بن سلام.

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٢٩٩) الأولَ مستندًا إلى دلالة التاريخ، فقال: «كانوا –فيما ذُكِر عنهم– يختارون أموالهم، فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله لنبيه محمد – ﷺ –: وربك –يا محمد– يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويختار للهداية والإيمان والعمل الصالح مِن خلقه ما هو في سابق علمه أنه خيرتهم، نظير ما كان من هؤلاء المشركين لآلهتهم خيار أموالهم، فكذلك اختياري لنفسي، واجتبائي لولايتي، واصطفائي لخدمتي وطاعتي، خيار مملكتي وخلقي».

وزاد ابنُ عطية (٦/ ٦٠٥) وجهًا ثالثًا، فقال: «يحتمل أن يريد: ويختار الله تعالى الأديان والشرائع، وليس لهم الخيرة في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة.

ويؤيد هذا التأويلَ قولُه تعالى: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾».

وقال جلَّ جلالُه: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ [الحج: 75].

وقال عزَّ وجلَّ: يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النور: 45، 46].

وعن واثِلةَ بنِ الأَسْقَعِ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفَى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفَى مِن قُرَيشٍ بني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ)).(64)

مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ.

أي: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ.(65)

(64) رواه مسلم (2276).

(65) اخْتُلِفَ في معنى ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ على قولين: أحدهما: أنَّها نافية.

وهو قول الجمهور.

والمعنى: ما كان للخلق على الله الخيرة.

ويكون الوقف التام على هذا القول على قوله تعالى: ﴿ويَخْتارُ﴾.

والثاني: أنَّها اسم موصول بمعنى: الذي، فيكون ذلك إثباتًا، والمعنى: ويختار للمؤمنين ما كان لهم فيه الخيرة.

وعلى هذا القول لا يُوقَف على قوله تعالى: ﴿ويَخْتارُ﴾.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ٣٠٠ – ٣٠١ بتصرّف) الثاني مستندًا إلى لغة العرب، وقال: «فإن قال قائل: فإن كان الأمر كما وصفتَ مِن أن ﴿ما﴾ اسم منصوب بوقوع قوله: ﴿يختار﴾ عليها، فأين خبر كان؟ ...

قيل: إنّ العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبار بعدها أحيانًا أخبارًا، كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها ...

كقول القائل: كان عمرٌو أبوه قائمٌ.

سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وارتفعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبِهم عليه؛ فهو وَحْدَه المتفَرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تَختارُ شَيئًا.

لاشــــكَّ أن» قائمًا «لو كان مكان الأب وكان الأب هو المتأخر بعده كان منصــــوبًا، فكذلك وجه رفع ﴿الخيرة﴾، وهو خبر لـ ﴿ما﴾».

ورجَّحَ ابنُ كثير (١٠/ ٤٧٩ بتصرّف) الأولَ مستندًا إلى النظائر، والسياق، وأقوال السلف، فقال: «قوله: ﴿ماكان لهم الخيرة﴾ نفيٌ على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذ اقضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ [الأحزاب: ٣٦].

[و] كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضًا، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئًا».

وبنحوه قال ابنُ القيم (٢/ ٢٩١).

وذَهَبَ ابنُ عطية (٦/ ٦٠٦) إلى وجه ثالث، فقال: «ويتَّجه عندي أن يكون ﴿ما﴾ مفعولة، إذا قدَّرنا ﴿كان﴾ تامة، أي: أنّ الله تعالى يختار كل كائن، ولا يكون شيء إلا بإذنه، وقوله تعالى: ﴿لهم الخيرة﴾ جملة مستأنفة، معناها: تعديد النعمة عليهم في اختيار الله تعالى لهم لو قبلوا وفهموا».

ولم يذكر مستندًا.

وانتَقَدَ ابنُ جرير (١٨/ ٣٠١) القولَ الأولَ؛ لدلالة أقوال السلف، ولغة العرب، والعقل، فقال: «هذا قول لا يخفى فسادُه على ذي حِجًا مِن وجوهٍ، لو لم يكن بخلافه لأهل التأويل قولٌ، فكيف والتأويل عمن ذكرنا بخلافه؟!».

ثم ذكر في أوجه فساد ذلك القول، ما ملخصه: ١ - أنّ مقتضى هذا القول نفي أن تكون لهم الخيرة فيما مضى قبل نزول هذه الآية، دون المستقبل.

لقوله: «ما لهم الخيرة»، ولم يقل: «ليس لهم الخيرة»؛ ليكون نفيًا عن أن يكون ذلك لهم فيما قبل وفيما بعد.

٢ - أنه غير جائز في الكلام أن يقال ابتداء: «ما كان لفلان الخيرة»، ولَمّا يتقدم قبل ذلك كلام يقتضي ذلك.

٣ - أن معنى ﴿الخيرة﴾ في هذا الموضـع: إنما هو «الخِيَرَة»، وهو الشـــيء الذي يختار من البهائم، والأنعام، والرجال، والنســـاء، وليس بالاختيار.

وانتَقَدَ ابنُ عطية (٦/ ٦٠٥) اختيار ابن جرير للقول الثاني، فقال: «اعتذر الطبري عن الرفع الذي أجمع القراء عليه في قوله تعالى: ﴿ما كان لهم الخيرةُ﴾ بأقوالٍ لا تتحصل، وقد ردَّ الناس عليه في ذلك».

وقال ابنُ كثير (١٠/ ٤٧٩): «قد احتجَّ بهذا المسلك طائفةُ المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح».

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69).

أي: وربُّك –يا مُحمَّدُ– يَعلَمُ ما تُخفي وتُضمِرُ نفوسُ عبادِه، وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ.

كما قال تعالى: يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ [الأنعام: 3].

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70).

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو دونَ ما سِواه.

لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ.

أي: هو وَحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ على أفعالِه وإحسانِه، وأسمائِه وصِفاتِه.

وَلَهُ الْحُكْمُ.

أي: وللهِ وَحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ففي الدُّنيا يَحكُمُ بينَ عِبادِه بِشَرْعِه وقَدَرِه، وفي الآخرةِ يَقضي بيْنَهم بعَدْلِه.

كما قال تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ [الأنعام: 57].

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُحاسِبُكم في الآخرةِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25، 26].

سورةُ القَصَصِ

الآيات (71–75)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ
أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ
لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

سَرْمَدًا: أي: دائِمًا، وأصلُه مِن (سرد): إذا وَصَلَ -والميمُ فيه زائدةٌ-، فكأنَّه زمانٌ متَّصِلٌ بَعضُه ببَعضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أخْبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا نهارٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ.

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أن يأتيَكم بنَهارٍ مُنيرٍ تُبصِرونَ فيه؟

أَفَلَا تَسْمَعُونَ.

أي: أفلا تَسمَعونَ ذلك سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ وانقيادٍ، وتتفكَّرونَ فيه فتتَّعِظونَ، وتَستَدِلُّونَ بذلك على توحيدِ اللهِ واستِحقاقِه للعِبادةِ وَحْدَه؟!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لِمُشرِكي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا لَيلٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ.

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أنْ يأتيَكم بلَيلٍ تَستقِرُّونَ فيه وتَستريحونَ؟

أَفَلَا تُبْصِرُونَ.

أي: أفلا تَرَونَ ذلك بأبصارِكم، فتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وأنَّ عِبادةَ مَنْ سِواه ضَلالٌ مُبينٌ؟!

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73).

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

أي: ومِن رَحمةِ اللهِ بكم –أيُّها النَّاسُ– أنْ خَلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ مختلِفَينِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ لِمَصالحِكم.

كما قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [إبراهيم: 33].

لِتَسْكُنُوا فِيهِ.

أي: جعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، وتَستريحوا مِن تَعَبِ أعمالِكم في النَّهارِ.

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: وجعَلَ اللهُ النَّهارَ مُضيئًا؛ لِطَلَبِ مَعايِشِكم وأرزاقِكم.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: وجعَلَ اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لِتَشكُروه على إنعامِه عليكم بهما، وتَعبُدوه وَحْدَه فيهما.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [الفرقان: 62].

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74).

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ، فيقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تدَّعُونَ كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفعونكم ويَنصُرونكم؟

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75).

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا.

أي: وأخرَجْنا وأحضَرْنا مِن كلِّ قَومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ على أمَّتِه بالتَّبليغِ وبما أجابَتْه في دَعوتِه إلى الحَقِّ.

كما قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41].

فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ.

أي: فقُلْنا لكلِّ أمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتُوا حُجَّتَكم على صِحَّةِ إشراكِكم باللهِ.

فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ.

أي: فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدقٌ وحَقٌّ مِن عِندِه.

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

أي: وغاب عن المُشرِكينَ واضمَحَلَّ ما كانوا يختَلِقونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفَعوهم في الآخِرةِ بشَيءٍ.

سورةُ القَصَصِ

الآيات (76-78)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ
أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ
الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي
الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
الْمُجْرِمُونَ (78)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَبَغَى: أي: تكَبَّرَ، وتجاوَزَ حَدَّه، وأصلُه: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ.

لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ: أي: تُثقِلُهم وتُميلُهم بثِقْلِها، يُقالُ: ناءَ به الحِملُ: إذا أثقَلَه حتَّى أمالَه. والعُصبةُ: الجماعةُ الكَثيرةُ، وقيل: هم مِن الرِّجالِ عَشَرةٌ. وأصلُ (نوء): يدُلُّ على نُهوضٍ بثِقلٍ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، فسُمِّيَتْ العصبةُ بذلك؛ لأنَّها قد عُصِبَتْ، أي: كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76).

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ.

أي: إنَّ قارونَ كان مِن بني إسرائيلَ مِن عَشيرةِ موسى، فتكبَّرَ على قومِه، وتجاوَزَ الحدَّ في احتِقارِهم؛ بسَبَبِ غِناه.

كما قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [العلق: 6، 7].

وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ.

أي: وآتَيْنا قارونَ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً يُثقِلُ حَمْلُ مَفاتيحِها الجَماعةَ الأشِدَّاءَ مِن الرِّجالِ، وتُميلُهم بثِقْلِها؛ لِكَثرتِها!

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ.

أي: إذ قال له قَومُه ناصِحينَ: لا تَفرَحْ بهذه الدُّنيا وتَبطَرْ بما أُوتيتَ فيها مِن الكُنوزِ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ بزينةِ الدُّنيا، البَطِرينَ بما أُوتوا مِن مَتاعِها الفاني.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: 7، 8].

وقال سبحانه: وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ [الرعد: 26].

وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77).

وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ.

أي: واطلُبْ –يا قارونُ– ثوابَ الآخرةِ ونَعيمَها بما آتاك اللهُ مِنَ الدُّنيا، ووهَبَك مِن أموالِها، فاستَعْمِلْه في طاعةِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليه، والإنفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ.

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا.

أي: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك.

وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ.

أي: وأحسِنْ –يا قارونُ– في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك بالرِّزقِ الواسِعِ.

كما قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الرحمن: 60].

وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

أي: ولا تَطلُبْ -يا قارونُ- الفسادَ في الأرضِ بالمعاصي والبَغيِ والتكَبُّرِ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، والبَغيِ والظُّلمِ.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78).

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي.

أي: قال قارونُ: إنَّما أُوتيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك.(66)

---

(66) اختلف في العلم المعني في قوله: ﴿على علم عندي﴾ على قولين: فقال قوم: علم من الله بحال قارون.

الثاني: علم قارون بالكيمياء.

ووجَّه ابنُ جرير (١٨/ ٣٢٦) قوله: ﴿عندي﴾ على القول الأول أنها بمعنى: أرى.

كأنه قال: إنما أُعطِيت لفضل علمي فيما أرى.

وبنحوه ابنُ عطية (٦/ ٦١٤).

ورجَّح ابنُ كثير (١٠/ ٤٨٣ - ٤٨٤) القول الأول مستندًا إلى ظاهر سياق الآية، فقال: «والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال الله تعالى رادًّا عليه فيما ادَّعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا وما كان ذلك عن محبة مِنّا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي: لكثرة ذنوبهم».

وانتقد ابنُ تيمية (٥/ ٨٩) القول الثاني الذي قاله ابن المسيب مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا باطِلٌ؛ فإنه لم يقله عالم معروف، وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عمَّن لا يُسمى، وفي تفسير الثعلبي الغث والسمين؛ فإنه حاطب ليل، ولو كان

كما قال تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الزمر: 49، 50].

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا.

مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص؛ فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون، والله سبحانه قال: ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾، فأخبر أنه آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة».

وكذا انتقد ابنُ كثير القول الثاني مستندًا إلى دلالة القرآن، والسنة، والعقل، فقال: «وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله – عز وجل –، قال الله: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له﴾ [الحج: ٧٣]، وفي الصحيح عن النبي – ﷺ – أنه قال: «يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة».

وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بِمَن يدَّعي أنه يُحِيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زور ومحال، وجهل وضلال.

وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهو كذِب وزغل وتمويه، وترويجٌ أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعًا لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعيٍّ أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفّاكون، فأما ما يُجْرِيه اللهُ تعالى مِن خرق العوائد على يدي بعض الأولياء مِن قلب بعض الأعيان ذهبًا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمرٌ لا يُنكره مسلم، ولا يرُدُّه مؤمن، ولكن هذا ليس مِن قبيل الصناعات، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله».

وذكر ابنُ كثير قولًا ثالثًا: أنّ العلم الذي كان عند قارون هو علمه باسم الله الأعظم.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٦١٤) قولين آخرين: أحدهما: أن العلم الذي كان عنده هو علم التجارات وتمييز الأموال.

والآخر: علم التوراة وحفظها.

ثم ذكر أنّ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يرجح أن قارون تشبع بعلم نفسه على زعمه.

أي: أوَلَمْ يعلَمْ قارونُ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟ فلا مانِعَ إذَنْ مِن إهلاكِ قارونَ، كما أُهلِكَ مَن هو مِثلُه أو أعظَمُ، وقد فعَل ما يُوجِبُ الهلاكَ!

وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ.

أي: ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، فيُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها مِن غيرِ أن يَستَعلِمَهم عنها؛ لعِلْمِه بها كُلِّها. (67)

(67) اختُلِف في عود الضمير في قوله: ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾ على قولين: الأول: أنه يعود للمجرمين.

الثاني: يعود على مَن أهلك من الأمم السابقة.

ورجح ابنُ جرير (١٨/ ٣٢٨) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الأول، وانتقد الثاني الذي قاله محمد بن كعب، ومقاتل، فقال:

«وهي بأن تكون مِن ذكر المجرمين أولى؛ لأن الله –تعالى ذكره– غير سائل عن ذنوب مذنب غير من أذنب، لا مؤمن ولا كافر.

فإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أنه لا معنى لخصوص المجرمين، لو كانت الهاء والميم اللتان في قوله: ﴿عن ذنوبهم﴾ لمن الذي في قوله: ﴿من هو أشد منه قوة﴾ من دون المؤمنين، يعني: لأنه غير مسؤول عن ذلك مؤمن ولا كافر، إلا الذين ركبوه واكتسبوه».

وساق ابنُ عطية (٦/ ٦١٤ – ٦١٥) القولين، ثم علَّق قائلًا: «وفي كتاب الله تعالى آيات تقتضي أن الناس يوم القيامة يسألون، كقوله تعالى: ﴿وقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وغير ذلك، وفيه آيات تقتضي أنه لا يسأل أحد، كقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ ولا جانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وغير ذلك، ويمكن أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يراد بها أسئلة التوبيخ والتقرير، والذي ينفيه يراد به أسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين، أي: أن ذلك لا يقع؛ لأن العلم بهم محيط، وسؤال التوبيخ غير معتدٍّ به».

سورةُ القَصَصِ

الآيات (79–84)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ
لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

يُلَقَّاهَا: أي: يُوفَّقُ لها، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافي شَيئَيْنِ.

وَيْكَأَنَّ: (وَيْ) كَلِمةُ تنبيهٍ وتنَدُّمٍ على أمرٍ سبَقَ، يقولُها المُتَنَدِّمُ عندَ إظهارِ ندامتِه، ويَقولُها المنَدِّمُ لِغَيرِه، والمنَبِّهُ له، و(كَأَنَّ) للتَّشبيهِ، ووقَع التَّشبيه هنا على أحَدِ مَعنَيينِ؛ أحدهما: أنَّهم أوقعوا التَّشبيهَ على ما في عِلمِهم وعُرفِهم. الثَّاني: أن يكونَ التَّشبيهُ ليس على أصلِه، بل المرادُ به التَّحقيقُ، أي: إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وإنَّ الأمرَ لا يُفلِحُ الكافِرونَ.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقْتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79).

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ.

أي: فخرَج قارونُ على قَومِه مِن بني إسرائيلَ مُتجَمِّلًا في زينةٍ عَظيمةٍ.

قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ.

أي: قال ضِعافُ الإيمانِ الَّذين يُريدونَ الحَياةَ الدُّنيا، حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتيَه قارونُ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا ومَتاعِها!

إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

أي: قالوا: إنَّ قارونَ لَصاحِبُ نَصيبٍ كبيرٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80).

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا.

أي: وقال أهلُ العِلمِ النَّافعِ العارِفونَ بحَقيقةِ الدُّنيا للَّذينَ تَمَنَّوا مِثلَ ما أُوتيَ قارونُ: وَيْلَكم! نَعيمُ الجنَّةِ الَّتي أعَدَّها اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ: خَيرٌ ممَّا أُوتيَ قارونُ مِن زينةِ الدُّنيا.

كما قال تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16، 17].

وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ.

أي: ولا يُوفَّقُ للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ والزُّهدِ في الدُّنيا الموصِلِ لثَوابِ الآخرةِ إلَّا الصَّابِرونَ على الطَّاعاتِ، وعن المعاصي، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ؛ كالفَقرِ.

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81).

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ.

أي: فغيَّبْنا قارونَ ودارَه في باطِنِ الأرضِ.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((بَيْنَما رجُلٌ يَجُرُّ إزارَه مِنَ الخُيَلاءِ،[68] خُسِفَ به؛ فهو يَتجلْجَلُ[69] في الأرضِ إلى يَومِ القيامةِ)).[70]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((بَيْنَما رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ،[71] تُعجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ؛[72] إذ خَسَفَ اللهُ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ إلى يومِ القيامةِ)).[73]

فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

أي: فلمْ يكُنْ لِقارونَ جَماعةٌ يمنعونَ عنه عذابَ اللهِ حينَ نزَل به.

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ.

أي: ولم ينتَصِرْ لِنَفْسِه فيَمنَعَ العذابَ بقُوَّتِه حينَ خُسِفَ به!

---

(68) الخيلاء: البَطَرُ والكِبْرُ والزَّهْوُ والتَّبَختُرُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (60/14).
(69) يَتجَلْجَلُ: أي: يَتحرَّكُ وينزلُ مُضْطَرِبًا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (64/14).
(70) رواه البخاري (3485).
(71) الحُلَّة: ثوبانِ أحدُهما فوقَ الآخَرِ، وقيل: لا تُسمَّى حُلَّةً إلَّا أن تكونَ ثَوبَيَنِ مِن جنسٍ واحدٍ، وقيل: إزارٌ ورِداءٌ.
يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (432/1)، ((فتح الباري)) لابن حجر (260/10).
(72) مُرَجِّل: مِنَ التَّرجيلِ –بالجيمِ–، وهو تسريحُ شَعرِ الرَّأسِ، والجُمَّة: مجتمعُ شَعرِ الرَّأسِ، وهو أكبَرُ مِنَ الوَفرةِ، ويُقالُ: هو الشَّعرُ الَّذي يتدلَّى مِنَ الرَّأسِ إلى المَنكِبَينِ وإلى أكثَرَ مِن ذلك.
((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (298/21).
(73) رواه البخاري (5789) واللفظ له، ومسلم (2088).

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82).

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ.

أي: وأصبحَ الَّذين رَغِبوا مِن قَبْلُ وطَمِعوا في أن تكونَ لهم حالُ قارونَ ومَنزِلتُه في الدُّنيا يقولونَ: ويْكأنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه بحِكمتِه، لا لِفَضلِ مَنزِلتِه أو لكَرامتِه عليه، سواءٌ كان فَطِنًا وحاذِقًا في أسبابِ الرِّزقِ أمْ لا، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم بحِكمتِه لا لِهَوانِه عندَه، سواءٌ كان فَطِنًا حاذِقًا أمْ لا؛ فاللهُ يُعطي ويمنَعُ، ويُضَيِّقُ ويُوسِّعُ، ويَخفِضُ ويرفَعُ، وله سُبحانَه الحِكمةُ البالِغةُ التَّامَّةُ.

لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا.

أي: لولا أنَّ اللهَ تفضَّل علينا بأنْ صرَف عنَّا ما تمنَّيْناه مِن حالِ قارونَ، لَكُنَّا قد طغَيْنا مِثلَ طُغيانِه؛ فخَسَفَ اللهُ بنا كما خَسَفَ به.

وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ.

أي: ويْكأنَّه لا يَنجَحُ ولا يفوزُ الكافِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83).

تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا.

أي: نعيمُ الجنَّةِ في الآخِرةِ نَجعَلُه للَّذين لا يُريدونَ أيَّ تكبُّرٍ في الأرضِ عن الحَقِّ بردِّه، أو على الخَلقِ بظُلمِهم، ولا يُريدونَ أيَّ عَمَلٍ بمعاصي اللهِ سُبحانَه.

عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ الله – ﷺ – ذاتَ يومٍ خطيبًا، فقال: إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أنْ تواضَعوا حتَّى لا يفخَرَ أحَدٌ على أحدٍ، ولا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ)).[74]

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ –، قال: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسنةً! قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بطَرُ الحَقِّ،[75] وغَمْطُ النَّاسِ)).[76][77]

---

(74) رواه مسلم (2865).

(75) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (2/90).

(76) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (2/90).

(77) رواه مسلم (91).

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

أي: والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لِلَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، فيَنصُرُهم اللهُ في الدُّنيا، ويُدخِلُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84).

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا.

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ،[78] فله ثوابٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ.

(78) وجه ابنُ تيمية (٥/ ٩١) تفسير الحسنة بكلمة التوحيد، والسيئة بالشرك، فقال: «فأهل القول الأول قالوه لدخول أعمال البر في التوحيد؛ لأنه عبادة الله بما أمر به، كما قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة ...﴾ [إبراهيم: ٩١]، فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، وكذلك السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك، فالإنسان حارث همام لابد له مِن عمل، ولابد له من مقصود يعمل لأجله، وإن عمل لله ولغيره فهو شِرك، والذنوب من الشرك، فإنها طاعة للشيطان، قال: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ [يس: ٦٠]، وفي الحديث: «وشر الشيطان، وشركه»».

قال ابنُ عطية (٦/ ٦١٩): «قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ معناه: إما في الدنيا، وإما في الآخرة ولا بُدّ، ففي وصف أمر جزاء الآخرة أنه مَن جاءَ بعمل صالح فَلَهُ خَيْرٌ مِن القدر الذي يقتضي النظر أنه مواز لذلك الفعل، هذا على أن نجعل الحسنة للتفضيل، وفي القول حذف مضاف، أي: من ثوابها الموازي لها، ويحتمل أن تكون» مِن «لابتداء الغاية، أي: له خير، بحسب حسنته ومن أجلها».

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فلا يُثابُ أصحابُها إلَّا جَزاءَ ما عَمِلوه بلا زيادةٍ، ولا يُظلَمونَ بتَعذيبِهم على ما لم يَعمَلوا.

كما قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الأنعام: 160].

سورةُ القَصَصِ

الآيات (85–88)

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَلَا يَصُدُّنَّكَ: أي: لا يَصْرِفُنَّكَ، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصِرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتَعَدٍّ، وقد يكونُ صَرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى: يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85).

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أنزل عليك القُرآنَ –يا محمَّدُ– وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به: لَرادُّك إلى مكَّةَ مِن بَعدِ خُروجِك منها.(79)

---

(79) اختلف في معنى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ على أقوال: الأول: لرادك إلى الموت.

الثاني: لرادك إلى مكة موضع ولادتك.

الثالث: لرادك إلى مكة بالفتح.

الرابع: لرادك إلى القيامة بالبعث.

الخامس: لمصيرك إلى الجنة.

السادس: بيت المقدس.

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٣٥١) القول الأول والثاني مستندًا إلى اللغة، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث ولدت.

وذلك أن المعاد في هذا الموضع» المفعل «من العادة، ليس من العود».

ثم ذكر بأن القول الثاني يصح إن وجه «موجه تأويل قوله: ﴿لرادك﴾: لمصيرك، فيتوجه حينئذ قوله: ﴿إلى معاد﴾ إلى معنى العود، ويكون تأويله: إن الذي فرض عليك القرآن لمصيرك إلى أن تعود إلى مكة مفتوحة لك».

وساق ابنُ عطية (٦/ ٦١٩) الأقوال، ثم قال: «والمعاد: الموضع الذي يعاد إليه.

وقد اشتهر به يوم القيامة؛ لأنّه معاد الكل».

وجمع ابنُ كثير (١٠/ ٤٩١) بين الروايات الواردة عن ابن عباس بقوله: «ووجه الجمع بين هذه الأقوال أنّ ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله – ﷺ –، كما فسره ابن عباس بسورة

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لِمُشرِكي قَومِك: رَبِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحَقِّ مِن عِندِه أنا أو أنتم، وأعلَمُ بمَن هو منَّا ومِنكم في ضَلالٍ واضِحٍ.

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86).

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.

أي: وما كُنتَ –يا مُحَمَّدُ– تَظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكِنَّ اللهَ أنزله عليك رحمةً منه بك وبِعبادِه.

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ.

أي: فلا تَكونَنَّ –يا مُحَمَّدُ– مُعينًا للكافِرينَ.

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87).

﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ أنه أجل رسول الله – ﷺ – نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم.

ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق».

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ.

أي: ولا يَصرِفَنَّك الكُفَّارُ –يا مُحَمَّدُ– بكَذِبِهم وأذاهم ومَكرِهم عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك؛ لِتَتلوَها عليهم، وتعمَلَ بها؛ فلا تُبالِ بهم، ولا تتأثَّرْ بمُخالفتِهم لك، واتِّباعِ أهوائِهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به.

كما قال تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا [الإسراء: 73، 74].

وقال سبحانه: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ [الروم: 60].

وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ.

أي: وادْعُ النَّاسَ –يا مُحَمَّدُ– إلى رَبِّك؛ لِعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له.

قال تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: 125].

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: ولا تَكونَنَّ –يا مُحَمَّدُ– معدودًا مِنَ المُشرِكينَ.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

.(88)

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

أي: ولا تَعبُدْ –يا مُحمَّدُ– مع اللهِ مَعبودًا غيْرَه، وأخلِصْ عِبادتَك للهِ وَحْدَه.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه فهو باطِلٌ.

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.

أي: كلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ تعالى، وكُلُّ عَمَلٍ باطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجْهُه.(80)

---

(80) اختلف في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلّا وجْهَهُ﴾ على قولين: الأول: إلاَّ الله.

الثاني: إلا ما أُرِيدَ به وجهُه.

الثالث: دينه.

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٤٩٢) أن القول الثاني لا ينافي الأول، فقال: «وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله – عز وجل – من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة.

والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء».

ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ٩٣) القول الثاني الذي قاله ابن عباس من طريق عطاء، والثوري، وأبو العالية، ومجاهد، مستندًا إلى السياق، فقال: «وتفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عن ما قاله من السلف والمفسرين من أن المعنى: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه.

كما قال تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: 26، 27].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمةُ لَبِيدٍ:

ألَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلٌ)).(81)

وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معي غَيْري ترَكْتُه وشِرْكَه)).(82)

لَهُ الْحُكْمُ.

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ بينَ عِبادِه في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ [الأنعام: 57].

فإنه ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشـــراك، وأن يدعو معه إلهًا آخر، وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ يقتضـــي أظهر الوجهين: وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الإيمان والأعمال وغيرهما».

وذكر ابنُ تيمية أن القول الثاني والأخير –الذي قاله جعفر الصادق– معناهما واحد.

(81) رواه البخاري (3841) واللفظ له، ومسلم (2256).

(82) رواه مسلم (2985).

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازي كُلًّا مِنكم بعَمَلِه.

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25، 26].

تَفْسِيرُ
سُورَةِ العَنكَبوتِ

سورةُ العَنكَبوتِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَنكَبوتِ).[83]

سورةُ العَنكبوتِ مَكِّيَّةٌ،[84] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[85]

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ العَنكَبوتِ:

ذِكرُ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيانُ حالِ أهلِ البلوَى في الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(83) سُمِّيت سورةَ العنكبوتِ؛ لتكَرُّرِ ذِكْرِها فيه.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (359/1).

وقد ورَدت في تسميتِها بذلك بعضُ الآثارِ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (449/6).

(84) وقيل: السُّورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (1-11) فمدَنيَّةٌ.

وقيل: إنَّها مدَنيَّةٌ إلَّا الآياتِ مِن (1-10) فنزلتْ بمكَّةَ.

وقيل: مدنيَّةٌ كُلُّها.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (355/18)، ((تفسير الزمخشري)) (438/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (398/3).

(85) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (359/1).

مِن أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ العَنكبوتِ:

1- بيانُ حَقيقةِ الإيمانِ، وسُـنَّةِ الابتلاءِ والفِتنةِ، ومَصـيرِ المؤمنينَ والمُنافِقينَ والكافِرين، والوصـيَّةُ بالوالِدَينِ، وبيانُ حالِ المُنافِقينَ، وبيانُ فِتنةِ الإغواءِ والإغراءِ مِنَ الَّذين كفَروا.

2- بيانُ طَرَفٍ مِن أخبارِ الرُّسُـلِ مع أقوامِهم، ومنها قِصَّـةُ نُوحٍ، وإبراهيمَ، ولُوطٍ، وشُـعَيبٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وموسى عليهم صلَواتُ الله وسلامُه، ثمَّ اختِتامُ هذه القصصِ ببيانِ العاقبةِ السَّيِّئةِ الَّتي لَحِقَتِ المكذِّبينَ مِن أقوامِ هؤلاء الرُّسلِ.

3- ضرْبُ المثَلِ لحالِ الكفَّارِ بالعَنكبوتِ الَّتي اتخذَتْ بيتًا هو أَوْهَنُ البُيوتِ.

4- توجيهُ الأمرِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتلوَ الكِتابَ، وأن يُقيمَ الصَّلاةَ.

5- النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إلَّا بالحُسنى إلَّا الَّذين ظَلَموا منهم، وإرشادُ المؤمنينَ إلى ما يَقولون لهم.

6- إقامةُ بعضِ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله.

7- بيانُ بعضِ ما عليه المشركونَ مِن تناقُضاتٍ، فهُم يَعترِفون أنَّ الله خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومع ذلك يُشرِكون! وإذا كانوا في السُّفُنِ، وأحاطتْ بهم الأمواجُ أخلَصوا الدُّعاءَ لله، ثمَّ إذا نجَّاهم إلى البَرِّ أشركوا!

8- وعْدُ المؤمنينَ الَّذين جاهَدوا في الله بالهدايةِ، وحُسنِ العاقبةِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (1–7)

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يُفْتَنُونَ: أي: يُختَبَرونَ، ويُمتَحنونَ، والفِتْنةُ مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

الم (1).

هذه الحروفُ المقَطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مُركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثون بها.

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2).

أي: أظَنَّ النَّاسُ أنَّهم يَسْلَمونَ مِن الفِتنةِ إذا آمَنوا فيُترَكُونَ مِن غَيرِ أن يُمتحَنوا؟!

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142].

وقال تبارك وتعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران: 179].

وقال سُبحانه وتعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [الكهف: 7].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ، فيُبتلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه؛ فإنْ كان دينُه صُلْبًا اشتَدَّ بَلاؤُه، وإنْ

كان في دينِه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطيئةٌ)).[86]

وعن حُذَيْفَةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا،[87] فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[88] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبينِ: على أبيضَ مِثلِ الصَّفا،[89] فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا،[90] كالكُوزِ مُجَخِّيًا،[91] لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ)).[92]

---

(86) أخرجه الترمذي (2398) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7481)، وابن ماجه (4023)، وأحمد (1494).

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (2398)، وذكر ثبوتَه ابنُ القيِّمِ في ((طريق الهجرتين)) (193)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (52/3).

(87) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3378/8).

أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3378/8).

(88) نُكِتَ: أي: نُقِطَ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/2).

(89) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/2).

(90) مِرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدَةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغُبْرَةِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3378/8).

(91) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (173/2).

(92) رواه مسلم (144).

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3).

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: ولقد اختبَرْنا الماضِينَ مِن قَبلِ هذه الأُمَّةِ وابتَلَيْناهم.

عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ – ﷺ –، وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[93] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستنصِرُ لنا؟ ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستعجِلونَ)).[94]

فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ.

أي: فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادِقينَ في إيمانِهم الثَّابِتينَ عليه مع البلاءِ، ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ رؤيةٍ ومُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ، ويُظهِرُه لعِبادِه، وقد كان عَلِمَه في الأزَلِ.

---

(93) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (9/3747).

(94) رواه البخاري (3612).

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [التوبة: 16].

وقال تبارك وتعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [محمد: 31].

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4).

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا.

أي: بل[95] أظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ[96] أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا، فلا نُعَذِّبُهم؟!

---

(95) قال السمينُ الحلبيُّ: (أَمْ هذه مُنقطِعةٌ، فتُقدَّرُ بـ «بل» والهمزةِ عندَ الجمهورِ، والإضرابُ انتِقالٌ لا إبطالٌ).
((الدر المصون)) (9/8).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (20/206)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 18).
وقيل: أَمْ مُعادلةٌ للألفِ في قولِه: أَحَسِبَ [العنكبوت: 2].
وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/306)، ((تفسير ابن جزي)) (2/122)، ((تفسير العليمي)) (5/230).
(96) قيل: المرادُ بالسَّيِّئاتِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ.
وممَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/372)، ((تفسير ابن جرير)) (18/360)، ((تفسير القرطبي)) (13/326).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/360).
وقيل: السَّيِّئاتُ هنا: فِتنةُ المؤمِنينَ وتَعذيبُهم والتَّنكيلُ بهم؛ فالَّذين يَعملونَ السَّيِّئاتِ هم الفاتِنونَ للمُؤمِنينَ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (20/206).
وقال ابنُ عطيَّة: (لفظُ الآيةِ يَعُمُّ كلَّ عاصٍ وعامِلِ سَيِّئةٍ مِن المسلمينَ وغيرِهم...
السَّيِّئاتِ الكفرُ وما اشتمَلَ عليه، ويَدخُلُ في ذلك المعاصي مِن المؤمنينَ مع الأعمالِ الصَّالحاتِ واجتنابِ الكبائرِ).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [النور: 19].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [الأحزاب: 57، 58].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ [البروج: 10].

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

أي: بِئسَ ما يَظُنُّه المُشرِكونَ مِن أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ ويُفلِتونَ منه، فلا يُؤاخِذُهم بسَيِّئاتِهم الَّتي عَمِلوها، وهو القاهِرُ القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما أسْوَأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ!

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5).

((تفسير ابن عطية)) (4/306، 307).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 18).

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ.

أي: مَن كان يَطمَعُ في لِقاءِ اللهِ يَومَ القيامةِ، فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ قَريبًا لا مَحالةَ.

كما قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ [البقرة: 223].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [الانشقاق: 6].

وقال سُبحانَه: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف: 110].

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العَليمُ بكُلِّ الكائناتِ؛ فهو السَّميعُ لِقَولِ مَن قال: آمَنَّا باللهِ، العليمُ بصِدقِ أو كَذِبِ دَعواهم، ويَعلَمُ مَن كان صادِقًا في رَجاءِ لِقائِه، فيُثيبُه ويَمنَحُه ما يَرجوه.

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6).

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ.

أي: ومَن بَذَلَ جُهدَه في حَمْلِ نفْسِه على فِعْلِ ما أمَرَه اللهُ، وتَرْكِ ما نَهاه عنه؛ وتحمَّلَ المَشاقَّ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ أعدائِه، ومُجاهَدةِ شَيطانِه- فإنَّما نَفْعُ ذلك وثوابُه لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ.(97)

كما قال تعالى: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ [الروم: 44، 45].

إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

أي: إنَّ اللهَ غَنيٌّ عن جَميعِ خَلْقِه، فلا تنفَعُه أعمالُهم وعِبادتُهم، كما لا تَضُرُّه مَعصيتُهم.

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - فيما روى عن اللهِ تبارَكَ وتعالى أنَّه قال: ((... يا عِبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عِبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا

---

(97) قال ابنُ عطية (٦/ ٦٢٥ - ٦٢٦ بتصرف): «وقوله تعالى: ﴿وَمَن جاهَدَ فَإِنَّمَا يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ إعلامٌ بأن كل واحد مجازًى بفعله فهو إذًا له، وهو حظُّه الذي ينبغي أن لا يفرط فيه، فإن الله غني عن جهاده، وغني عن العالمين بأَسْرِهم.
وقيل: معنى الآية: ومن جاهد المؤمنين ودفع في صدر الدين فإنما جهاده لنفسه، لا لله، فالله غني.
وهذا قول ذكره المفسرون، وهو ضعيف».

عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ)).(98)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.

أي: والَّذين آمنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وثَبَتوا على إيمانِهم عندَ البَلاءِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُبطِلَنَّ سَيِّئاتِهم، ولَنعفُونَّ عن مؤاخَذتِهم بها.

كما قال تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [النحل: 110].

وقال سُبحانَه: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [النساء: 31].

وقال تعالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود: 114].

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.

---

(98) رواه مسلم (2577).

أي: ولَنُثيبَنَّ أولئك المؤمِنينَ الَّذين يعمَلونَ الصَّالِحاتِ بأحسَنِ ما كانوا يعمَلونَه مِن الطَّاعاتِ.(99)

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

---

(99) ممَّن اختار أنَّ قولَه تعالى: أَحْسَنَ: يعودُ إلى العمَلِ، أي: نُجازيهم بأحسَنِ أعمالِهم، الَّتي هي الطَّاعاتُ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (9/3035).

قال السعدي: (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ وهي أعمالُ الخَيرِ؛ مِن واجباتٍ ومستحَبَّاتٍ، فهي أحسَنُ ما يعملُ العبدُ؛ لأنَّه يعملُ المباحاتِ أيضًا وغيرَها).

((تفسير السعدي)) (ص: 626).

وقيل: أَحْسَنَ يعودُ إلى الجزاءِ، أي: يجازيهم اللهُ أحسَنَ جزاءٍ على ما عَمِلوه.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/264)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 30).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (20/212).

قال ابن عثيمين: (وأحسَنُ جزاءٍ بيَّنه الله تعالى في قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا [الأنعام: 160] ، وقال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ [البقرة: 261]، فهذا الجزاءُ أحسَنُ جزاءٍ؛ لأنَّ الجزاءَ غايتُه أن يكونَ مِثلَما فعَلَ الفاعلُ، لكن هنا يُجازَى بأحسَنَ وأعظَمَ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 30).

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيتان (8-9)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8).

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: (حلَفَتْ أمُّ سَعدٍ ألَّا تُكَلِّمَه أبدًا حتَّى يَكفُرَ بدينِه، ولا تأكُلَ ولا تَشرَبَ. قالتْ: زعَمْتَ أنَّ اللهَ وصَّاك بوالِدَيك، وأنا أمُّك، وأنا آمُرُك بهذا! قال: مَكَثَتْ ثلاثًا حتَّى غُشِيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقام ابنٌ لها يُقالُ له: عُمارةُ، فسَقاها، فجعَلَت تدعو على سَعدٍ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ في القُرآنِ هذه الآيةَ: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا).[100]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا.

أي: وأمَرْنا الإنسانَ أمرًا مؤكَّدًا وعَهِدْنا إليه أن يُحسِنَ إلى والِدَيه قولًا وفِعلًا، وأن يُحافِظَ على ذلك.

كما قال تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [النساء: 36].

---

(100) رواه مسلم (1748).
قال النيسابوري: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وفي أمِّه حَمْنةَ بنتِ أبي سُفيانَ).
((تفسير النيسابوري)) (425/5).

وقال سُبحانه: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء: 23، 24].

وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا.

أي: وإنْ بذَلَ والِداك -أيُّها المُسلِمُ- جُهدَهما لِتَجعَلَ لي شَريكًا لا تَعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك.(101)

كما قال تعالى: وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [لقمان: 15].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((لا طاعة في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المَعروفِ)).(102)

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

---

(101) ذكر ابن عطية (٦/ ٦٢٧) في نزول الآية قولين: الأول: أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، كما في الآثار.
الثاني: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، ولم ينسبه إلى أحد من السلف.
ثم علّق بقوله: «ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصدُ بهذه الآية النهيَ عن طاعة الأبوين في مثل هذا؛ لعظم الأمر، وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى».
(102) رواه البخاري (7145، 7257)، ومسلم (1840).

أي: إليَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ، فأُخبِرُكم بجَميعِ أعمالِكم: ظاهِرِها وخَفيِّها، خَيرِها وشَرِّها؛ وأُجازيكم عليها، ومِن ذلك إحسانُكم إلى والِدِيكم، وصَبرُكم وثباتُكم على دينِكم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9).

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِشَرعِه: لَنُدخِلَنَّهم في جُملةِ الصَّالحين.

كما قال تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [البقرة: 130].

وقال سُبحانه: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69].

وقال يوسفُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [يوسف: 101].

وقال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ [النمل: 19].

وقال سُبحانَه عن الأنبياءِ: وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [الأنبياء: 86].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي [الفجر: 27 – 30].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيتان (10–11)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)

تَفسيرُ الآيتينِ:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: (كان قومٌ مِن أهلِ مكَّةَ أسلَموا، وكانوا يَستَخْفُونَ بإسلامِهم، فأخرَجَهم المُشرِكونَ يومَ بَدرٍ معهم، فأُصيبَ بعضُهم، وقُتِلَ بعضٌ، فقال المُسلِمونَ: كان أصحابُنا هؤلاء مُسلِمينَ وأُكرِهوا؛ فاستغفِروا لهم، فنزلت: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 97] ، فكُتِبَ إلى مَن بَقِيَ بمكَّةَ مِنَ المُسلِمينَ بهذه الآيةِ: أنْ لا عُذرَ لهم؛ فخرجوا، فلَحِقَهم المُشركونَ، فأعطَوْهُمُ الفِتنةَ،[103] فنَزَلت فيهم هذه الآيةُ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ، فكتب المُسلِمونَ إليهم بذلك، فخَرَجوا وأَيِسُوا من كلِّ خيرٍ، ثمَّ نَزَلت فيهم: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

---

(103) أي: كفَروا بعدَ إسلامِهم.

يُنظر: حاشية (2) من ((تفسير ابن جرير)) (103/9) بتحقيق أحمد شاكر، ومحمود شاكر.

رَحِيمٌ [النحل: 110] ، فكَتَبوا إليهم بذلك: إنَّ اللهَ قد جعَل لكم مَخرَجًا، فخرَجوا، فأدرَكهم المُشرِكونَ، فقاتَلوهم، حتَّى نجا مَن نجا، وقُتِل مَن قُتِل).(104)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا باللهِ فوحَّدْناه، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن إيمانِه باللهِ، جعَل أذى النَّاسِ له كعَذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ ويَترُكُ الحَقَّ لِيَسْلَمَ مِن أذى الخَلقِ.

كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الحج: 11].

وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ.

أي: ولَئِنْ جاء نَصرٌ مِن ربِّك -يا مُحمَّدُ- لِحزبِ اللهِ الثَّابِتي الإيمانِ، وفَتْحٌ ومَغانِمُ- لَيَقولَنَّ أولئك الجاعِلونَ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ، المُرتَدُّون عن إيمانِهم: إنَّا كُنَّا معكم مُؤمِنينَ؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِن الغنائِمِ!

---

(104) أخرجه البَزَّار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (2204)، وابن جرير في ((التفسير)) (10260) واللفظ له، والطحاوي في ((مشكل الآثار)) (3377)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (17170)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (215).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/7): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ محمَّدِ بنِ شَريكٍ، وهو ثقةٌ).

وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/560)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق ((مشكل الآثار)) (8/450)، وأورده الوادعي في ((الصحيح من أسباب النزول)) (126).

كما قال تعالى: وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا [النساء: 72، 73].

وقال سُبحانَه: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النساء: 141].

أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ.

أي: أوَليس اللهُ بأعلَمَ مِن كُلِّ أحدٍ بما في قُلوبِ جَميعِ خَلقِه، إخلاصًا كان أو نِفاقًا؟ فهو العالِمُ بما يُخفِي المُنافِقونَ، وإن أظهَروا للمُؤمِنينَ خِلافَ ما في قُلوبِهم؛ فكيف يُخادِعونَ مَن لا تَخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَستَتِرُ عنه سِرٌّ ولا علانيةٌ؟!

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11).

أي: ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمنينَ الصَّادِقينَ الثَّابتينَ على إيمانِهم، ولَيَعْلَمَنَّ المُنافِقينَ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ مُشاهَدةٍ يترتَّبُ عليه جزاؤُهم.

كما قال تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ [آل عمران: 179].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ؛ يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، أو يُمسي مُؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنيا!)).[105]

(105) رواه مسلم (118).

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيتان (12–13)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

غَريبُ الكَلِماتِ:

أَثْقَالَهُمْ: أي: أوزارَهم وآثامَهم، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ.

يَفْتَرُونَ: يختلِقون، ويَكذِبون؛ فـ (الافتراء) الاختِلاقُ، وهو ما عَظُم مِن الكَذبِ، ومنه قيل: افترى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتَه: إذا أنت قطَعْتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مخاطِبينَ المُؤمنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا في الدِّينِ، وسنتحَمَّلُ عنكم آثامَكم -إن كان في اتِّباعِها إثمٌ- فيكونُ العذابُ علينا، دونَ أن يكونَ عليكم شَيءٌ!

وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ.

أي: ولن يَتحمَّلَ الكُفَّارُ شَيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوا طريقَتَهم الباطِلةَ.

كما قال تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [فاطر: 18].

وقال سُبحانه: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ [المعارج: 10 – 14].

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

أي: إنَّهم لَكاذِبونَ في زَعمِهم أنَّهم يحمِلونَ ذُنوبَ المؤمِنينَ إن اتَّبَعوهم.

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13).

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ.

أي: ولَيَحمِلَنَّ أولئك الدَّاعونَ إلى طَريقِ الضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ أتْباعِهم الضَّالِّينَ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن ذُنوبِ الأتْباعِ شَيءٌ.

كما قال تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [النحل: 25].

وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

أي: ولَيُسْألَنَّ أولئك الكافِرونَ يومَ القيامةِ سُؤالَ توبيخٍ وتَقريعٍ عَمَّا كانوا يختَلِقونه مِن الضَّلالِ، وتزيينِه للنَّاسِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيتان (14-15)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الطُّوفَانُ: أي: السَّيلُ العَظيمُ، والماءُ المُتناهي فِي الكَثرةِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يَحُفَّ به.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا.

أي: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فأقام فيهم نبيًّا داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخَمسينَ سَنةً.

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ.

أي: فأهلَكَهم الماءُ الكثيرُ الَّذي نزَل مِن السَّماءِ، ونَبَع مِن الأرضِ، فأغرَقَهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ؛ فاستَحَقُّوا عذابَ اللهِ.

كما قال تعالى: وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [الأنبياء: 77].

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15).

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ.

أي: فأنجَيْنا مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ نوحًا ومَن حمَلَهم معه في السَّفينةِ.

كما قال تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا [الأعراف: 64].

وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

أي: وجعَلْنا تلك السَّفينة عِبرةً للعالَمينَ وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطَّائعِ، وإهلاكِه للعاصي.

قال تعالى: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً [الفرقان: 37].

وقال سُبحانَه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [الشعراء: 121].

وقال عزَّ وجلَّ: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [يس: 41].

وقال جلَّ جلالُه: وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر: 15].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ [الحاقة: 11، 12].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (16–18)

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ
كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

أَوْثَانًا: أي: أصنامًا، والوثَنُ: هو ما كان يُعبدُ مِن حجارةٍ أو جصٍّ، وقيل: الصَّنمُ: ما كان مصَوَّرًا، والوثنُ: ما كان مِن غيرِ صورةٍ، وقيل: الوثنُ كلُّ ما كان منحوتًا مِن خشبٍ أو حجرٍ، والصَّنمُ: ما كان مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ، واشتِقاقُه مِن قولِهم: وَثَنَ الشَّيءُ، إذا قام في مكانِه وثبَت، فسُمِّي الصَّنمُ وثنًا؛ لأنَّه يُنصَبُ ويُركزُ في مكانٍ، فلا يَبرَحُ عنه.

إِفْكًا: أي: كَذِبًا، وقيل: الإفكُ هو أسْوَأُ الكذِبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطِلِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرْفِه عن جِهتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16).

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ.

أي: واذكُرْ[106] إبراهيمَ إذ قال لِقَومِه: اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، واتَّقوا سَخَطَه وعذابَه بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه.

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: عبادةُ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ خيرٌ لكم في دُنياكم وأُخْراكم مِن تَركِ ذلك، إن كنتُم تَعلَمونَ؛ فلا يَعقِلُ خَيريَّةَ عِبادةِ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلَّا ذو عِلمٍ.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17).

---

(106) ممَّن اختار أنَّ المعنى: واذكُرْ إبراهيمَ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (372/18)، ((تفسير الزمخشري)) (446/3)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة العنكبوت)) (ص: 66).

ويجوزُ أن يكونَ (إبْراهِيمَ) معطوفًا على (نوح)، أي: وأرسَلْنا إبراهيمَ.

ويجوزُ أن يكونَ معطوفًا على الضَّميرِ في فَأَنْجَيْنَاهُ [العنكبوت: 15].

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (310/4).

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ أوثانًا لا تَستَحِقُّ شَيئًا مِن رُتبةِ الألوهيَّةِ.

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا.

أي: وتَصنَعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ، وتُسَمُّونَها آلهةً، وتَختَلِقون الكذِبَ(107) بالأمرِ بعِبادتِها!(108)

---

(107) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وتخلقون إفكا﴾ على أقوال: الأول: وتصنعون كذبًا.

الثاني: وتقولون كذبًا.

الثالث: وتنحتون إفكًا.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٣٧٤) القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: معناه: وتصنعون كذبًا».

ولم يذكر مستندًا.

(108) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (374/18، 375)، ((تفسير القرطبي)) (335/13)، ((تفسير ابن كثير)) (269/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (412/14)، ((تفسير السعدي)) (ص: 628)، ((تفسير ابن عاشور)) (225/20).

ممَّن اختار أنَّ معنى وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا أي: تقولون كذِبًا: ابنُ أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (343/3)، ((تفسير الثعلبي)) (274/7)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5611/9)، ((تفسير البغوي)) (553/3)، ((تفسير الخازن)) (377/3)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 522)، ((تفسير الشوكاني)) (227/4).

وذلك على أنَّ معنى تَخْلُقُونَ: تَكذِبون، فهو مِن اختِلاقِ الكذِبِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (123/2)، ((تفسير الشوكاني)) (227/4).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تَعمَلون الأصنامَ بأيديكم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (377/3)، ((تفسير السمرقندي)) (628/2)، ((تفسير ابن جزي)) (123/2).

قال ابن جُزَي: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا هو مِنَ الخِلقةِ، يُريدُ به نحْتَ الأصنامِ، فسَمَّاهُ خِلْقةً على وجهِ التَّجَوُّزِ).

((تفسير ابن جزي)) (123/2).

وقال السعدي: (قال: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا تَنحِتونها وتَخلُقونها بأيديكم، وتَخلُقون لها أسماءَ الآلهةِ، وتَختلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعبادتِها، والتَّمسُّكِ بذلك).

إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا.

أي: إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أن تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ ولو قليلًا.

فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ.

أي: فاطلُبوا الرِّزقَ كُلَّه مِنَ اللهِ وَحْدَه، ولا تَطلُبوه ممَّن سِواه مِن الأوثانِ وسائرِ الخَلقِ.

وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ.

أي: واعبُدوا اللهَ وَحْدَه وتذَلَّلوا له، واشكُروه على رِزقِه وسائرِ نِعَمِه.

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ، فيُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم.

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18).

((تفسير السعدي)) (ص: 628).

وقال الزمخشريُّ: (واختلاقُهم الإفكَ: تَسميتُهمُ الأوثانَ آلهةً وشُركاءَ لله أو شُفعاءَ إليه.

أو سمَّى الأصنامَ: إفكًا، وعمَلَهم لها ونَحْتَهم: خَلْقًا للإفكِ).

((تفسير الزمخشري)) (447/3).

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ.

أي: وإن تُكذِّبوا بالحَقِّ فقد كذَّبَتْ به جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ.(109)

وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.

أي: وما على رَسولِ اللهِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه ما أمَرَه اللهُ بتبليغِه لهم بلاغًا واضِحًا مُوضِّحًا للحَقِّ، وليس عليه هِدايتُهم.

---

(109) قيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ لِقَومِه.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/270)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/414).

وقيل: هذا مِن كلامِ اللهِ تعالى خِطابًا لكُفَّار قُرَيشٍ.

أي: وإن تُكَذِّبوا رسولَنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/376).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (20/226، 227).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (9/3045).

وقيل: هذا مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم لكُفَّارِ قُرَيشٍ.

يعني: قُلْ لهم يا محمَّدُ: وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّب أمَمٌ مِن قَبْلِكم.

وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/628).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (3/447، 448).

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (19-23)

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يُبْدِئُ: أي: يُنشئُ ويَخترِعُ ويَستأنِفُ، وأصلُ (بدأ): مِنِ افتِتاحِ الشَّيءِ.

تُقْلَبُونَ: أي: تُرجَعونَ وتُرَدُّونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19).

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتَدِئُ اللهُ الخَلْقَ بعدَ العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه مِن بَعدِ فَنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى؟

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

أي: إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ على اللهِ تعالى، والَّذي قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أراد شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ.

كما قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 78 – 82].

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20).

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– للمُشرِكِينَ المُنكِرِينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ: سافِروا في الأرضِ؛ لِتَنظُروا كيف بدأ اللهُ الخَلْقَ مِنَ العَدَمِ.

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سُبحانَه: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت: 53].

ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ.

أي: ثمَّ اللهُ الَّذي بَدأ الخلقَ مِنَ العَدَمِ، يُنْشِئُه نَشْأةً ثانيةً بعدَ فَنائِه.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُعجِزُه فِعلُ شَيءٍ، ومِن ذلك بَعْثُ خَلقِه كما كانوا قبْلَ مَوتِهم.

كما قال تعالى: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [ق: 15].

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21).

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ.

أي: يُعذِّبُ اللهُ مَن يَشاءُ تَعذيبَه على ذُنوبِه بعَدلِه، ويَرحَمُ مَن يشاءُ رَحمتَه مِنَ المؤمِنينَ بفَضلِه.

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ.

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ فيَبعثُكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجَزاءِ.

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22).

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

أي: وما أنتم بمُفلِتِينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءُ أكنتُم في الأرضِ أمْ في السَّماءِ؛ فاللهُ قادِرٌ على أن يُعَذِّبَكم أينَما كُنتُم.

كما قال تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ [الرحمن: 33].

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

أي: وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ يَتولَّاكم، ولا نصيرٌ يَنصُرُكم، ويدفَعُ عَذابَ اللهِ عنكم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي.

أي: والَّذين كَفروا بآياتِ اللهِ وأنكروا البَعثَ بعدَ الموتِ: أولئك يَئِسوا مِن رحمةِ اللهِ، ولن يُدخِلَهم جنَّته.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف: 40].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة: 72].

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: وأولئك الكُفَّارُ لهم عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (24–27)

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ
(25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

تَفسيرُ الآياتِ:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24).

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ.

أي: فما كان جوابَ قَومِ إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى اللهِ وعبادتِه وَحْدَه إلَّا أنْ قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ؛ لِمُخالَفتِه دينَكم.

كما قال تعالى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [الأنبياء: 68].

وقال سُبحانَه: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ [الصافات: 97].

فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ.

أي: فأَلْقَوا إبراهيمَ في النَّارِ، فسلَّمه اللهُ بقُدرتِه مِن أذاها.

كما قال تعالى: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ [الأنبياء: 69].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ في إنجائِنا لإبراهيمَ مِن النَّارِ بَعْدَما أُلقيَ فيها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ على قُدرةِ اللهِ، وغيرِها، وذلك للمُؤمِنينَ باللهِ تعالى وبرُسُلِه.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25).

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أوثانًا تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ اتِّباعًا مِن بَعضِكم لِبَعضٍ، وحِفظًا لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، فتلك مَوَدَّةٌ كائِنةٌ في حياتِكم الدُّنيا فحَسْبُ.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

أي: ثمَّ يومَ القيامةِ يتبرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ، ويَجحَدُه ويَلعَنُه، ويَنقطِعُ ما كان بيْنَكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ.

كما قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 166، 167].

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ.

أي: ومَصيرُكم النَّارُ جميعًا.

وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

أي: وليس لكم حينَ تَدخُلونَ النَّارَ أنصارٌ يُنقِذونَكم منها.

كما قال تعالى: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 22، 26].

فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26).

فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ.

أي: فصدَّقَ لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقادَ له.

وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي.

أي: وقال إبراهيمُ:[110] إنِّي خارِجٌ ومُنتَقِلٌ مِن أرضِ قَومي المُشرِكينَ؛ لأعبُدَ اللهَ في أرضٍ غيرِها.

---

(110) ممَّن اختار أنَّ القائلَ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/384)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/425)، ((تفسير الشوكاني)) (4/230)، ((تفسير السعدي)) (ص: 629)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 123).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُرَيجٍ، والضَّحَّاكُ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/384).
وقيل: يحتملُ عَودُ الضَّميرِ على لوطٍ عليه السَّلامُ، ويكونُ هو القائلَ.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/273).

كما قال تعالى: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 71].

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ في أمرِه، الَّذي لا يَذِلُّ مَن نَصَره، بل يَمنَعُه ممَّن أرادَه بسوءٍ، الَّذي لا عِزَّةَ إلَّا به، وهو جديرٌ بإعزازِ مَنِ انقطَعَ وهاجَرَ إليه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه وشَرعِه وتَدبيرِ خَلْقِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27).

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

أي: ورَزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هِجرتِه مِن أرضِ قَومِه وَلَدَه إسحاقَ، ووَلَدَ وَلَدِه يعقوبَ بنَ إسحاقَ.

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا [الأنعام: 84].

وقال سُبحانَه: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود: 71].

وقال عزَّ وجلَّ: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا [مريم: 49].

وقال تبارك وتعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ [الأنبياء: 72].

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ.

أي: وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نَسْلِ إبراهيمَ، وعليهم تُنَزَّلُ الكُتُبُ الإلهيَّةُ؛ فلَمْ يَبعَثِ اللهُ نبيًّا بعدَ إبراهيمَ إلَّا مِن صُلبِه، ولا نَزَّل كتابًا إلَّا على ذُرِّيَّتِه.

وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا.

أي: وآتَيْنا إبراهيمَ جَزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا.(111)

كما قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [البقرة: 124].

وقال سُبحانَه: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً [النحل: 120 – 122].

وقال عز وجل: وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [مريم: 50].

---

(111) قال ابنُ كثير: (جمَع اللهُ له بيْنَ سعادةِ الدُّنيا المَوصولةِ بسعادةِ الآخرة؛ فكان له في الدُّنيا الرِّزقُ الواسِعُ الهنيُّ، والمنزِلُ الرَّحْبُ، والمَورِدُ العَذبُ، والزَّوجةُ الحَسَنةُ الصَّالحةُ، والثَّناءُ الجميلُ، والذِّكرُ الحَسَنُ؛ فكُلُّ أحدٍ يُحِبُّه ويَتَولَّاه عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (6/275).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 630).

وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ في عِدادِ الصَّالحينَ، وله فيها جزاؤُه الَّذي لا يَنقُصُ شَيءٌ منه بما أُعطِيَ في الدُّنيا مِنَ الثَّوابِ العاجِلِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (28–30)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28)
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
الْمُفْسِدِينَ (30)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْفَاحِشَةَ: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي هنا إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ.

نَادِيكُمُ: أي: مجلِسِكم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تجمُّعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28).

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نَبيَّنا لُوطًا حينَ قال لِقَومِه المُشرِكينَ: إنَّكم لَتَفعَلونَ ما تجاوَزَ الحَدَّ في القُبحِ والشَّناعةِ، وذلك بإتيانِ الذُّكورِ في أدبارِهم!

مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ.

أي: ما سَبَقكم إلى فِعلِ هذه الفاحِشةِ أحَدٌ مِن الأُمَمِ قَبْلَكم، وإنَّما هو شَيءٌ ابتَدَعْتُموه أنتم.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29).

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ.

أي: أئنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؟!

كما قال سبحانه وتعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ [الأعراف: 81].

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ.

أي: وتَقطعونَ الطَّريقَ على المارَّةِ والمُسافِرينَ؟!

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.

أي: وتَفعَلونَ في مَجالِسِكم التي تجتَمِعونَ فيها ما قَبُحَ مِن الأقوالِ والأعمالِ؟![112]

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

أي: فما كان جوابَ قَومِ لُوطٍ على دَعوتِه لهم، وإنكارِه عليهم إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعذابِ اللهِ إن كُنتَ مِن الصَّادِقينَ في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ، وفيما تَتَوعَّدُنا به مِنَ العذابِ على أعمالِنا!

(112) اختلف في المنكر الذي عناه الله في الآية على أقوال: الأول: أنه الضّراط.

الثاني: أنهم كانوا يحذفون مَن مَرَّ بهم.

الثالث: أنه إتيان الفاحشة في المجالس.

الرابع: الصفير، ولعب الحمام، وتطريف الأصابع بالحناء، ونبذ الحياء.

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ٦٤١) على القول الرابع بقوله: «وقد توجد هذه الأشياء في بعض عصاة أمة محمد – ﷺ –، فالتناهي واجب».

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٣٩٢) مستندًا إلى السنة القول الثاني، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: معناه: وتحذفون في مجالسكم المارَّةَ بكم، وتسخرون منهم؛ لما ذكرنا من الرواية بذلك عن رسول الله – ﷺ –».

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30).

أي: قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني بإهلاكِ هؤلاء القَومِ المُشرِكينَ العاصينَ بإتيانِ القبائحِ، الَّذين يُفسِدونَ أنفُسَهم وغَيرَهم مِنَ النَّاسِ.

كما قال تعالى: قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ [الشعراء: 167 – 169].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (31-35)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْغَابِرِينَ: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُرادُ به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البقاءِ.

سِيءَ بِهِمْ: أي: ساءَه مجيئُهم، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ.

ذَرْعًا: أي: صدرًا أو طاقةً، وأصلُه: يدُلُّ على امتدادٍ، وتحرُّكٍ إلى قُدُمٍ.

رِجْزًا: أي: عذابًا، وأصلُ المعنى: الاضْطِرابُ، والحركةُ العنيفةُ، والارتعاشُ، ويُطلَقُ على العذابِ؛ لإزعاجِه النَّاسَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31).

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى.

أي: ولَمَّا جاءَتْ رُسلُنا مِنَ الملائِكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ وَلَدًا له، وبيَعقوب وَلَدًا لإسحاقَ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود: 69 – 71].

قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا؛ لِنُهلِكَ أهلَ قَريةِ لُوطٍ.

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ.

أي: لأنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ بالكُفرِ والمعاصي.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32).

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القَريةِ لُوطًا، وليس مِنَ الظَّالِمينَ كقَومِه!

قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا.

أي: قالت الملائكةُ: نحن أعلَمُ بمَن في تلك القَريةِ مِن المُؤمنينَ والظَّالِمينَ.

لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ.

أي: لَنُنَجِّيَنَّ لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِنَ الباقِينَ في العَذابِ.

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33).

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا.

أي: ولَمَّا جاء رُسلُ اللهِ مِنَ الملائكةِ إلى لُوطٍ، ساءَه مجيئُهم إليه، واغتمَّ بقُدومِهم؛ لخَوفِه عليهم مِن قَومِه، وعَجزِه عن حِفظِهم منهم!

وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ.

أي: وقالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ.

كما قال تعالى: قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ [هود: 81].

إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ.

أي: إنَّا سنُنَجِّيك -يا لُوطُ- وأهلَك مِنَ العذابِ النَّازِلِ بقومِك إلَّا امرأتَك؛ فهي مِنَ الباقِينَ معهم في العَذابِ.

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34).

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القَريةِ عَذابًا، وهو حِجارةٌ تَنزِلُ عليهم مِن السَّماءِ.

كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ [هود: 82].

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

أي: وذلك العَذابُ واقِعٌ بهم؛ بسَبَبِ ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ، وفِعْلِ الفاحِشةِ والمُنكَرِ.

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35).

أي: ولقد أبقَيْنا مِن قَريةِ قومِ لُوطٍ علامةً ظاهِرةً واضِحةً لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ حُجَجَه، ويَتفكَّرونَ في مَواعِظِه.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ [الحجر: 75 – 77].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الصافات: 137، 138].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيتان (36–37)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

تَعْثَوْا: أي: تُفسِدوا، وتَسعَوا، وتَطغَوا، وأصلُ العيثِ: يدُلُّ على الفَسادِ.

الرَّجْفَةُ: أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضْطِرابٍ.

جَاثِمِينَ: أي: موتَى، لاصِقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وقيل: مُلقًّى بعضُهم فوقَ بعضٍ، والجُثومُ: البُروكُ على الرُّكَبِ، وأصلُ الجثومِ: هو أن يكونَ الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهِه، رُكْبَتاه في الأرضِ، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36).

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا.

أي: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ[113] أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا.

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ.

أي: فقال شُعَيبٌ لِقَومِه: يا قَومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا له بطاعتِه، وارجُوا اليومَ الآخِرَ خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ.[114]

---

(113) قال ابن عطية: (قيل في مَدْيَنَ: إنَّه اسمُ بلدٍ وقُطرٍ، وقيل: اسمُ قبيلةٍ).
((تفسير ابن عطية)) (426/2).
وقال ابن عاشور: (مَدْيَنُ: اسمُ أحدِ أبناءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، سكنَتْ ذُرِّيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأَيْكةَ على شاطئِ البحرِ الأحمرِ جنوبَ عَقَبةِ أَيْلةَ، وغلَبَ اسمُ القبيلةِ على الأرضِ، وصار عَلَمًا للمكانِ).
((تفسير ابن عاشور)) (221/16).
(114) قال أبو حيان: (والأمرُ بالرِّجاءِ أمرٌ بفِعلِ ما يَترتَّبُ الرَّجاءُ عليه، أقام المُسَبَّبَ مقامَ السَّبَبِ.
والمعنى: وافعَلوا ما تَرجُونَ به الثَّوابَ مِن اللهِ، أو يكونُ أمرًا بالرَّجاءِ على تقديرِ تحصيلِ شرطِه، وهو الإيمانُ باللهِ.
وقال أبو عبيدةَ: وارجوا: خافُوا جزاءَ اليومِ الآخِرِ مِن انتِقامِ اللهِ منكم إن لم تَعبُدوه).
((تفسير أبي حيان)) (356/8).
ممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على بابِه: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والثعالبي.

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ في حالِ كَونِكم مُفْسِدينَ، ولا تَعمَلوا بمعصيةِ الله، والبَغْيِ على النَّاسِ: ببَخْسِ المكاييلِ والمَوازينِ، وقطعِ الطُّرُقِ، مع كُفرِكم بالله؛ فإنَّه أصْلُ كلِّ فسادٍ، ولكنْ تُوبوا إلى الله مِن ذلك، وأَنِيبوا إليه.

كما قال تعالى: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا [الأعراف: 85، 86].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (397/18)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5627/9)، ((تفسير ابن عطية)) (316/4)، ((تفسير الثعالبي)) (294/4).

وقال الرَّسْعَني: (قال عامَّةُ المفسِّرينَ: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى الخشيةِ، المعنى: اخْشَوُا اليومَ الَّذي تُجازَوْن فيه بأعمالِكم).

((تفسير الرسعني)) (613/5).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ والخشيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغويُّ، وذكر ابنُ الجوزي أنَّه قولُ المفسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (382/3)، ((تفسير السمرقندي)) (632/2)، ((تفسير البغوي)) (556/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (407/3).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أن نحملَه على المعنيَينِ جميعًا، أي: ارْجُوه خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ...، والرَّاجحُ عندي -وهو قولٌ لبعضِ العلماءِ- جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنيَينِ إذا لم يكُنْ بيْنَهما تنافٍ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 181).

وممَّن اختار أنَّ معنى وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أي: تَوَقَّعوه وافعَلوا اليومَ مِن الأعمالِ ما يَدفَعُ عذابَه عنكم: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (39/7)، ((تفسير الشوكاني)) (233/4)، ((تفسير القاسمي)) (554/7).

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37).

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ.

أي: فكذَّبوا نبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ.

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ.

أي: فأصبَح قَومُ شُعَيبٍ في بَلَدِهم مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم مَوْتَى، قد فارَقتْ أرواحُهم أبدانَهم، ليس منهم داعٍ ولا مجيبٌ.

كما قال تعالى: فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا [هود: 94، 95].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (38–40)

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ
مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مُسْتَبْصِرِينَ: أي: ذَوي بصائِرَ تُمكِّنُهم مِن تمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ.

حَاصِبًا: أي: ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى، والحَصباءُ: جِنسٌ مِن الحَصى، والحَصْبُ: الرَّميُ.

الصَّيْحَةُ: أي: الصَّوتُ الشَّديدُ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي.

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ: أي: غَيَّبناه فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38).

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ.

أي: وأهلَكْنا عادًا قومَ هُودٍ، وثمودَ قومَ صالحٍ، وقد ظهَرَ لكم هلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاويةِ منهم!

ثُمَّ بَيَّن سببَ ما جرَى عليهم، فقال:

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لعادٍ وثمودَ أعمالَهم الشَّنيعةَ مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي، فردَّهم وصرَفَهم عن طَريقِ الحَقّ.

وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ.

أي: صدَّهم الشَّيطانُ عن الحَقّ، والحالُ أنَّهم كانوا عُقَلاءَ بُصَراءَ، مُتمَكِّنينَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ، وقد عَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطِلِ بواسطةِ الرُّسُلِ والأدِلَّةِ؛ فلا عُذرَ لهم في مخالفةِ طَريقِ الحَقّ![115]

---

(115) نقل ابنُ عطية (٦/ ٦٤٤) في قوله تعالى: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أن المعنى: «لهم بصيرة في أنّ الرسالة والآيات حق، ولكن كانوا –مع ذلك– يكفرون عنادًا، ويردُّهم الضلال إلى مجاهلة ومتالفة».

وعلَّق عليه بقوله: «فيجري هذا مجرى قوله تعالى: ﴿وجَحَدُوا بِها واسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾ [النمل:

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39).

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ.

أي: وأهلَكْنا قارونَ صاحِبَ الكُنوزِ الكثيرةِ، وأهلَكْنا فِرعَونَ مَلِكَ مِصرَ، وأهلَكْنا هامانَ.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: ولقد جاء موسى كلًّا مِن قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ بالمُعجِزاتِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ.

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ.

أي: فاستَكبَروا عن الحَقِّ الَّذي جاءَهم به موسى.

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ.

أي: وما كان قارونُ وفِرعَونُ وهامانُ فائِتينَ اللهَ، ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِه وحُكمِه فيهم.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40).

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ.

أي: فأهلَكْنا عادًا وثمودَ وقارونَ وفِرعَونَ وهامانَ؛ كُلًّا بسَبَبِ ذَنْبِه، وعلى قَدْرِه، وبِعُقوبةٍ تُناسِبُه.

فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا.

أي: فمِنهم مَن أرسَلْنا عليه ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى حتَّى هَلَكوا، وهم عادٌ.(116)

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [القمر: 18 – 20].

---

(116) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم قومُ عادٍ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (278/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (251/20)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (160/6).
وقيل: المرادُ بهم: قومُ لوطٍ.
وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (400/18)، ((تفسير القرطبي)) (344/13).
قال ابن عثيمين: (هذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ قومَ لوطٍ أرسَلَ اللهُ عليهم حاصبًا مِن السَّماءِ، وهي حجارةٌ مِن سِجِّيلٍ تحصِبُهم، كالَّتي أُرسِلَت على أصحابِ الفيلِ، وليست هي الحَصباءَ الَّتي تَذريها الرِّياحُ، وليس في عِلْمِنا أنَّ اللهَ تعالى أرسل الرياحَ على قَومِ لوطٍ، ولو كانت رياحًا تحمِلُ الحصباءَ لَبَيَّنَها اللهُ عزَّ وجَلَّ).
((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 201).
وقال ابن جُزَي: (الحاصِبُ: الحِجارةُ، والحاصِبُ أيضًا: الرِّيحُ الشَّديدةُ، ويحتَمِلُ عندي أنَّه أراد به المعنيَينِ؛ لأنَّ قَومَ سيِّدِنا لوطٍ أُهلِكوا بالحِجارة، وعادٌ أُهلِكوا بالرِّيحِ...
لأنَّ المقصودَ هنا ذِكرُ عمومِ أخْذِ أصنافِ الكُفَّارِ).
((تفسير ابن جزي)) (126/2).

وقال سُبحانَه: أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [الحاقة: 6، 7].

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَهم اللهُ بالصَّيحةِ الشَّديدةِ، وهم ثمودُ.(117)

كما قال تعالى: وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [هود: 67، 68].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [القمر: 31].

وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بأنْ غيَّبَه في الأرضِ، وهو قارونُ.

كما قال تعالى: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ [القصص: 81].

---

(117) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: ثمودُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ بهم: ثمودُ ومَدْيَنُ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (401/18)، ((تفسير القرطبي)) (345/13).

وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا.

أي: ومِنهم مَن أهلَكه اللهُ بالغَرَقِ، وهما فِرعَونُ وهامانُ.(118)

كما قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [الأعراف: 136].

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: وما يَنبغي لله سُبحانَه أن يُهلِكَهم ظُلمًا مِن غيرِ ذَنبٍ منهم، أو يُهلِكَهم بذُنوبِ غيرِهم، أو يُهلِكَهم مِن غيرِ إنذارِهم وإمهالِهم، وبعْثِ الرُّسلِ إليهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ إذ تَسَبَّبوا في عذابِها بوُقوعِهم في الشِّركِ باللهِ، ومَعصيتِه، وتَكذيبِ رُسُلِه؛ فاستَحَقُّوا عِقابَه.

---

(118) وممَّن قال بأنَّهم فِرعونُ ومَن معه: السمرقنديُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: قومُ نوحٍ، وفِرعونُ وقومُه.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (403/18)، ((تفسير القرطبي)) (345/13).

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (41-44)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

أَوْهَنَ: أي: أَوْهَى وأضْعَفَ، وأصلُ (وهن): ضَعْفٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41).

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا.

أي: مَثَلُ الَّذين اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغيرِها، فيَطلُبونَ نفعَها، ويَرجُونَ نَصْرَها؛ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَت لنفْسِها بَيتًا تأْوي إليه، لا يَدفَعُ عنها حَرًّا ولا بردًا، ولا مطرًا ولا ضَرًّا، وكذلك ما اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا بوجْهٍ مِن الوُجوهِ.

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ.

أي: وإنَّ أضْعَفَ البُيوتِ هو بَيتُ العَنكَبوتِ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم، وأنَّ اتِّخاذَهم الأولياءَ مِن دونِ اللهِ كاتِّخاذِ العَنكَبوتِ بيتًا؛ لَمَا اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، لكنَّهم يجهَلون ذلك، فيَحسَبونَ أنَّهم يَنفعونَهم ويُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى!

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42).

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما[119] يَدْعُونَ مِن دُونِه -دُعاءَ مَسألةٍ أو عِبادةٍ- مِن أيِّ مَعبودٍ كان، ويَعلَمُ حالَها ووَهْنَها، وأنَّها مَعبوداتٌ باطِلةٌ كالعَدَمِ لا تَنفَعُ صاحِبَها بشَيءٍ، وهو مُجازيهم على كُفرِهم وشِرْكِهم.

كما قال تعالى: وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [يونس: 66].

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

---

(119) قيل: «ما» هنا موصولةٌ بمعنى الَّذي.

وممَّن قال بذلك: القرطبي، والبِقاعي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (13/346)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/443)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 216).

وقيل: «ما» نافيةٌ، بمعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّهم لا يَدْعُونَ في الحقيقةِ شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقةٌ، ولكِنَّهم يَدْعونَ أمورًا عَدَميَّةً.

وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي، وجوَّزه ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 631)، ((تفسير ابن عاشور)) (20/253، 254).

وقيل: هي للاستِفهامِ.

وممَّن ذهب إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ.

يُنظر: ((المسائل البصريات)) لأبي علي الفارسي (1/543)، ((تفسير الشوكاني)) (4/235).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (4/318).

أي: واللهُ هو القَويُّ القاهِرُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ أرادَه، الغالبُ، المنتقِمُ ممَّن أشرَك معه في عبادتِه غيرَه، الحَكيمُ في شَرعِه وقَدَرِه، وفي تدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك إهلاكُه مَن أراد إهلاكَه في الحالِ، وتأخيرُ مَن أراد تأخيرَ هَلاكِه.

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43).

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ.

أي: وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نجعَلُها للنَّاسِ؛ لنُبيِّنَ لهم المعانيَ والحُجَجَ، ونُقَرِّبَها إلى أفهامِهم؛ لِيَنتَفِعوا بها.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الزمر: 27].

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

أي: وما يَفهَمُ أمثالَ القُرآنِ ويَتبيَّنُ له مَغْزاها إلَّا ذَوو العِلمِ باللهِ وآياتِه.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44).

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، ولم يَخلُقْهما باطِلًا لغيرِ شَيءٍ على وَجْهِ العبثِ واللَّعبِ، إنَّما خلَقهما لأمرٍ هو كائنٌ، ولِيَكونا دلائلَ على قدرتِه وعَظَمتِه وحِكمتِه، ولِيَقومَ أمرُه وشرعُه، ولِتَتِمَّ نعمتُه على عبادِه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصَى.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: إنَّ في خَلقِ اللهِ السَّمواتِ والأرضَ لَعَلامةً للمُؤمِنينَ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وكَمالِ قُدرتِه، وعلى غيرِ ذلك مِنَ المطالِبِ الإيمانيَّةِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (45-47)

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47)

تَفسيرُ الآياتِ:

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45).

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ.

أي: اقرَأْ –يا مُحَمَّدُ– ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ بتدَبُّرٍ، واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأبلِغْه للنَّاسِ.

كما قال تعالى: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ [الكهف: 27].

وقال سُبحانَه: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ... [النمل: 91، 92].

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.

أي: وأَدِّ –يا مُحَمَّدُ– الصَّلَواتِ تامَّةً بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها.

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

أي: إنَّ الصَّلاةَ المُقامةَ بحُدودِها وخُشوعِها مِن شأنِها أن تَدعُوَ صاحِبَها إلى اجتِنابِ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ.(120)

---

(120) اختلف السلف في معنى الصلاة على قولين: الأول: أنها الصلاة المعروفة.

الثاني: أنها قراءة القرآن.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ - ﷺ - فقال: إنَّ فُلانًا يُصَلِّي باللَّيلِ، فإذا أصبَحَ سَرَق! قال: إنَّه سيَنْهاهُ ما تَقولُ)).[121]

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٤١٠) القول الأول مستندًا لأقوال السلف، فقال: «والصواب من القول في ذلك: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

كما قال ابن عباس، وابن مسعود».

ثم بيّن ابنُ جرير كيفية نهي الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر، بأنها: «تنهى مَن كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛ لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعدًا.

وذلك أنّ طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٦٤٨ - ٦٤٩) قولًا آخر في كيفية نهي الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فقال: «وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة، وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليهم رقوب؛ صلحت لذلك نفسه، وتذللت، وخامرها ارتقاب الله تعالى، فاطرد ذلك في أقواله وأعماله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، فهذا معنى هذا الإخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون».

ثم وجّه قول من قال من السلف: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدًا» فقال: «ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاصٍ تبعده من الله تمادى على بعده، وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم:» من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدًا «.

ثم قال:» سمعت أبي؟ يقوله، فإذا قررناه ونظرنا معناه فغير جائز أن نقول: إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر تبعده، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان بسبيله، فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله تعالى".

(121) أخرجه أحمد (9778)، والبزار (9217)، وابن حبان (2560).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (261/2): رجالُه رجالُ الصحيح.

وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (1193)، والأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (9778)، وصَحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (1393) وقال: رجاله رجالُ الصَّحيحِ.

أي: وما في الصَّلَاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ.(122)

(122) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ على أقوال: الأول: ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

الثاني: ولذكركم الله أكبر من كل شيء.

الثالث: أن الآية تحتمل الوجهين السابقين.

الرابع: لذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة.

الخامس: وللصلاة التي أتيت أنت بها، وذكرك الله فيها؛ أكبر مما نهتك الصلاة من الفحشاء والمنكر.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٤١٧) مستندًا إلى ظاهر الآية القول الأول، فقال: «وأشبه هذه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل قولُ من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه».

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ٦٥٠) القول الثاني مستندًا إلى دلالة العقل، فقال: «وعندي أن المعنى: ولَذِكْر الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر.

فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ مُراقِب، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى كما في الحديث: «ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها فينهى، والذكر النافع هو مع العلم، وإقبال القلب، وتفرغه إلا من الله تعالى، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى».

وقد ذكر ابنُ عطية (٤/ ٣٢٠ ط: الكتب العلمية) قولًا لم ينسبه إلى أحد من السلف أن المعنى: ولذكر الله كبير.

ثم علّق عليه وعلى قول سلمان الفارسي، فقال: «كأنه يحض عليه في هذين التأويلين الأخيرين».

وانتقد ابنُ تيمية (٥/ ١٠٨) مستندًا إلى النصّ والإجماع والدلالة العقلية بعضَ ما يندرج تحت القول الثاني قائلًا: «ومَن ظن أن المعنى: ولذكر الله أكبر من الصلاة.

فقد أخطأ؛ فإن الصلاة أفضل من الذكر المجرد بالنص والإجماع.

والصلاة ذكر الله لكنها ذِكْرٌ على أكمل الوجوه، فكيف يفضل ذكر الله المطلق على أفضل أنواعه؟! ومثال ذلك قوله – ﷺ –: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه قربة إلى ربكم، ودأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، ومكفرة للسيئات، ومطردة لداعي الحسد».

فبين ما فيه من المصلحة بالقرب إلى الله، وموافقة الصالحين، ومن دفع المفسدة بالنهي عن المستقبل من السيئات، والتكفير للماضي منها، وهو نظير الآية».

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَه -أيُّها النَّاسُ- وسيُجازيكم عليه.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46).

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

أي: ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طَريقةٍ، وذلك بدُعائِهم إلى الحَقِّ بالرِّفقِ واللِّينِ، والقَولِ الحَسَنِ، وبأقرَبِ الحُجَجِ وأقْواها المُوصِلةِ للمَقصودِ.

كما قال تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: 125].

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ.

أي: إلَّا المُعانِدينَ للحَقّ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، المُعتَدينَ الَّذين لم يَقبَلوا النُّصحَ،[123] ولم يَنفَعْ فيهم الرِّفقُ.[124]

---

(123) اختُلِف في المراد بـــــ «الذين ظلموا» في قوله تعالى: ﴿ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ إلّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾، وهل الآية ثابتة، أم منسوخة؟ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ المراد بهم: الذين لم يؤدُّوا الجزية مِن أهل الكتاب، وحاربوا المسلمين، والمعنى: ولا تجادلوا أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن، إلا المحاربين الذين لم يؤدُّوا الجزية، فأولئك ينبغي جدالهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية.

وهذا قول مجاهد.

والثاني: أنّ المراد بهم: المقيمون على كفرهم مِن أهل الكتاب، والمعنى: ولا تجادلوا مَن آمن مِن أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ثم استثنى مِن ذلك مَن بقي على كفره مِن أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم.

والآية على هذا محكمة غير منسوخة.

وهذا قول ابن زيد.

والثالث: أنّ المراد بهم: مَن ظَلَمَ المؤمنين بقول أو فِعْل، والمعنى: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ثم استثنى مِن المجادلة بالحسنى مَن ظَلَمَ المؤمنين بقول أو فِعْل، ثم نُسِخَ ذلك بآية القتال والجزية.

وهذا قول قتادة.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ٤٢٠ - ٤٢١) القولَ الأولَ، وانتَقَدَ القولَ الثانيَ استنادًا إلى الدلالة العقلية، وقال: «إنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن الله -تعالى ذِكْرُه- أذِن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذي هو أحسن بقوله: ﴿إلّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾، فمعلوم -إذ كان قد أذن لهم في جدالهم- أنّ الذين لم يُؤذَن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن غيرُ الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمنين؛ لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحقّ؛ لأنه إذا جاء بغير الحق فقد صار في معنى الظَلَمة في الذي خالف فيه الحقّ، فإذ كان ذلك كذلك تبيَّن أن لا معنى لقول مَن قال: عنى بقوله: ﴿ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ﴾ أهل الإيمان منهم».

ورجَّحَ ابنُ عطية (٦/ ٦٥١) القولَ الثالثَ استنادًا إلى أحوال النُّزول، فقال: «الذي يَتَوَجَّه في معنى الآية إنما يتضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أن السورة مكية من بعد الآيات العشر الأول، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها، فربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدال واحتجاج في أمر الدين وتكذيب، فأمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم بالمحاجّة إلا بالحسنى، دعاء إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى مَن ظلم منهم المؤمنين إما بفعل، وإما بقول، وإما بإذاية محمد - ﷺ -، وإما بإعلان كُفْر فاحش كقول بعضهم: عزير ابن الله، ونحو هذا، فإن هذه الصفة استثني لأهل الإسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أحسن، ثم نسخ هذا بَعْدُ بآية القتال والجزية».

وانتَقَدَ ابنُ جرير (١٨/ ٤٢١) القول بالنسخ؛ لعدم ورود دليل به، فقال: «لا معنى لقول مَن قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال.

وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل».

ونحا ابنُ تيمية (٥/ ١١٠ - ١١٢) منحى ابن جرير في اختياره قول مجاهد، وانتقاده القولَ بالنسخ.

(124) قال الماوَرْدي: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم أهلُ الحربِ، قاله مجاهدٌ.

الثَّاني: مَن منَعَ الجِزيةَ منهم، رواه خُصَيْفٌ.

الثَّالثُ: ظَلَموا بالإقامةِ على كُفرِهم بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، قاله ابنُ زَيدٍ.

الرَّابعُ: ظلَموا في جِدالِهم فأغلَظوا لهم، قاله ابنُ عيسى).

((تفسير الماوردي)) (4/286).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الَّذين منَعوا الجزيةَ، ونصَبوا الحربَ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/420)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 834)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/409)، ((تفسير العليمي)) (5/253).

قال الرَّسْعَني: (وقال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: إلَّا الذين ظلَموا بالإقامةِ على الكفرِ، ونَصْبِ رايةِ الحربِ، فقاتِلوهم حتَّى يُسْلِموا أو يُعطُوا الجِزيةَ).

((تفسير الرسعني)) (5/620).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الَّذين ظلَموا في جِدالِهم بالفُحشِ في المقالِ أو العِنادِ وعدَمِ قَبولِ النُّصحِ، أو جادَلوا على وجهِ المُشاغَبةِ والمُغالَبةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/457)، ((تفسير الشوكاني)) (4/236)، ((تفسير القاسمي)) (7/557)، ((تفسير السعدي)) (ص: 632).

وقال ابن عثيمين: (وهل الآيةُ تدُلُّ على أنَّهم يُترَكون، أم أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّهم يُجادَلونَ بالَّتي هي أسْوَأُ؟ اختلَف كلامُ المفَسِّرينَ في هذه المسألةِ؛ فمنهم مَن قال: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فاترُكوهم ولا تُجادِلوهم؛ لأنَّه لا فائدةَ مِن جِدالِهم ما دام قد ظهَرَ عِنادُهم وظُلْمُهم.

ومنهم مَن قال...

فجادِلوهم بالسَّيفِ حتَّى يُسلِموا أو يُعطُوا الجِزيةَ.

وعندي أنَّ الآيةَ تحتَمِلُ المعنيينِ جميعًا، وأنَّه ينبغي أن تُنَزَّلَ على الحالينِ، وتُستعمَلَ كلُّ حالٍ بما يليقُ ويُناسِبُ؛ فإذا كان المقامُ يقتضي أن نجادِلَهم بالسَّيفِ، وذلك بأن يكونَ لدينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرةِ ما نتمكَّنُ به مِن ذلك، وإذا لم يكُنْ لنا قدرةٌ وكانت المصلحةُ تقتضي تَرْكَهم فإنَّنا نَترُكُهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السِّرُّ في أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لم يذكُرْ حُكمَ هذا المُستثنى صريحًا، فلم يَقُلْ: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فجادِلوهم بالَّتي هي أسوأُ، ولم يَقُل: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فلا تُجادِلوهم.

بل جعَلَه صالحًا للأمْرَينِ).

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.

أي: وقولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وآمَنَّا بما أنزَلَه إليكم مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، ممَّا لم يُحرَّفْ ويُبَدَّلْ.

وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ.

أي: ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

أي: ونحن -مَعشَرَ المُسلِمينَ- خاضِعونَ لله مُنقادونَ، ومُتذَلِّلونَ له بالطَّاعةِ، لا نُشرِكُ به شَيئًا.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47).

((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 250، 251).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ.

أي: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ.

فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

أي: فعُلَماءُ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ.(125)

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ [الرعد: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [القصص: 52، 53].

(125) قيل: المعنى: الَّذين آتَيْناهم الكِتابَ مِن قَبْلِك مِن بني إسرائيلَ كانوا يؤمِنونَ بك وبالقُرآنِ؛ لِما في كتُبِهم مِن صِفتِك.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (423/18)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 834)، ((تفسير ابن عطية)) (321/4).
وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ اليهودُ والنَّصارى: قَتادةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (3070/9).
وقيل: المرادُ: فالَّذين آتَيْناهم الكِتابَ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأمثالِه ممَّن أسلَمَ مِن اليهودِ والنَّصارى.
وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (385/3)، ((تفسير ابن جزي)) (127/2)، ((تفسير ابن كثير)) (285/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (452/14).

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ.

أي: ومِن هؤلاء الَّذين هم بينَ ظَهرانَيْكَ[126] -يا محمَّدُ- مَن يؤمنُ بالقُرآنِ.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ.

أي: وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا مع ظُهورِها إلَّا الرَّاسِخونَ في الكُفرِ، فيَستُرونَ الحقَّ ويُنكِرونَه بعدَ مَعرِفتِه.

كما قال تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: 146].

---

(126) قيل: المرادُ: مَن أسلمَ مِن أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (423/18).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (321/4).
وقيل: العَرَبُ مِن قُرَيشٍ وغيرِهم.
وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (285/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (452/14)، ((تفسير القاسمي)) (559/7).
وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ.
وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (386/3)، ((تفسير السمعاني)) (185/4)، ((تفسير البغوي)) (563/3)، ((تفسير الزمخشري)) (458/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (410/3)، ((تفسير النسفي)) (680/2)، ((تفسير العليمي)) (254/5)، ((تفسير الشوكاني)) (239/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (9/21)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 262).

وقال سُبحانَه: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [الأنعام: 33].

وقال عزَّ وجلَّ: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [النمل: 14].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (48-52)

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ
آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49) وَقَالُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَى
بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)

غَريبُ الكَلِماتِ:

لَارْتَابَ: أي: لَشَكَّ، والرِّيبةُ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ، وكَوْنُ الأمرِ مشكوكًا فيه ممَّا تَقلقُ له النَّفْسُ ولا تَستقِرُّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48).

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ.

أي: وما كنتَ –يا محمَّدُ– تقرأُ كتابًا مِن قبْلِ هذا القرآنِ.

وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ.

أي: وما كنتَ –يا محمَّدُ– تُحسِنُ الكتابةَ.

إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ.

أي: لو كنتَ –يا محمَّدُ– تقرأُ أو تَكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك، لَشَكَّ في صِدقِك الكافِرونَ.[127]

---

(127) قيل: المرادُ بالمُبطِلينَ هنا: أهلُ الكتابِ.

أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لَقالوا: الَّذي نجِدُه في كُتُبِنا أنَّه رَسولٌ أمِّيٌّ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ.

وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/637)، ((تفسير القرطبي)) (13/351).

وممَّن فسَّر المُبطِلينَ بأنَّهم اليهودُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/386).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: السُّدِّيُّ.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (2/635).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قُرَيشٍ.

أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لارتاب هؤلاء وقالوا: إنَّما أخَذ القُرآنَ وتَعلَّمَه مِن كِتابٍ سابقٍ.

وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والخازنُ، والألوسيُّ.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ [الأعراف: 157].

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49).

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 834)، ((تفسير الخازن)) (3/383)، ((تفسير الألوسي)) (11/5).
وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: مجاهدٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/426).
وممَّن قال بأنَّهم: أهلُ الكتابِ والعَرَبِ: البِقاعي.
يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/453، 454).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (3/458).
وقيل: يعمُّ لفظُه كلَّ مكذبٍ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكنْ عظَّم الإشارةَ به إلى قريشٍ؛ لأنَّهم الأهمُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/322).

أي: بل[128] القُرآنُ آياتٌ واضِحاتُ الدَّلالةِ على الحَقِّ،[129] وهو محفوظٌ في صَدرِ النَّبيِّ - ﷺ - والمُؤمنينَ.[130]

---

(128) قال ابنُ عثيمين: («بل» هنا للإضراب، والإضرابُ نَوعان: انتِقاليٌّ وإبطاليٌّ، وهنا يحتَمِلُ أنَّ الإضرابَ للإبطالِ...؛ لأنَّه أبطلَ قولَهم: إنَّه جاء به مِن عندِه.

ويحتَمِلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقاليًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى ما يكونُ به مُتقَوِّلًا على الله، أثبَتَ أنَّه آياتٌ مِن الله؛ فيكون انتِقالًا مِنَ النَّفْيِ إلى الإيجابِ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: 278).

(129) اختُلِف في المراد بالضمير في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ على قولين: أولهما: أنّ المراد به: القرآن، والمعنى: بل هذا القرآن آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد - ﷺ -.

والثاني: أنّ المراد به: النبي - ﷺ -، والمعنى: بل العلم بأنّ النبيّ - ﷺ - ما كان يتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ولا يخطه بيمينه؛ آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب؛ لأنه منعوت في كتبهم بهذه الصفة.

وعلَّقَ ابنُ عطية (٦/ ٦٥٣) على القول الأول بقوله: «ويؤيده أن في قراءة ابن مسعود: (بَلْ هِيَ آياتٌ)».

وعلَّقَ على القول الثاني، بقوله: «ويؤيده أن قتادة قرأ: (بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ) على الإفراد».

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٨/ ٤٢٧ - ٤٢٨) القولَ الثانيَ استنادًا إلى السياق، وقال: «إنما قلت: ذلك أولى التأويلين بالآية. لأنّ قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بين خبرين مِن أخبار الله عن رسوله محمد - ﷺ -؛ فهو بأن يكون خبرًا عنه أولى مِن أن يكون خبرًا عن الكتاب الذي قد انقضى الخبر عنه قبل».

وذَهَبَ ابنُ كثير (١٠/ ٥٢١) إلى الأول، فقال: «هو الأظهر».

ولم يذكر مستندًا.

وبنحوه ابنُ القيم (٢/ ٣٠٢).

(130) ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ بقولِه: هُوَ أي: القرآنُ-: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بقولِه: هُوَ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وعلى هذا ففي المرادِ بالآيةِ قَولانِ: (أحدهما: أنَّ المعنى: بل وِجدانُ أهلِ الكتابِ في كُتُبِهم أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ، وأنَّه أُمِّيٌّ: آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهم، وهذا مذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكِ، وابنِ جُرَيجٍ.

والثَّاني: أنَّ المعنى: بل محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذو آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِ الَّذين أُوتوا العِلْمَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّهم يجِدونَه بنَعتِه وصِفتِه.

كما قال تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ [سبأ: 6].

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ.

أي: وما يجحَدُ بآياتِنا مع ظُهورِها، ودَلالتِها الواضحةِ على الحَقِّ، ويُنكِرُها بعدَ مَعرِفتِها إلَّا المتَّصِفونَ بظُلمِ أنفُسِهم بالكُفرِ والمُكابَرةِ والعِنادِ.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50).

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزاتٌ مِن رَبِّه -كمُعجِزاتِ صالحٍ وموسى وعيسى- تكونُ حُجَّةً له علينا؛ فنُصَدِّقَه.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ [الإسراء: 90 - 93].

قاله قَتادةُ.

((تفسير ابن الجوزي)) (410/3).

وقيل: يحتملُ أن يعودَ على أمرِ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في أنَّه لم يتلُ ولا خطَّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (322/4).

وقال تعالى حاكيًا عن الكفَّارِ قولَهم: فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء: 5].

قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وليست عندي، فلا يأتي بها إلَّا هو إن شاءَ.

وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

أي: وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم عذابَ اللهِ، وليست لي قُدرةٌ على الإتيانِ بمُعجِزاتٍ.

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51).

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ.

أي: أوَلَم يَكْفِ هؤلاءِ المُشرِكينَ المُقتَرِحينَ نُزولَ الآياتِ عليك -يا محمَّدُ- أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ الَّذي تتتابَعُ قراءتُه عليهم؟! فهو كافٍ في إثباتِ صِدقِك، وهدايتِهم إلى الحَقّ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى [طه: 133].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ في ذلك القُرآنِ لَرحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمِنينَ، وذِكرى لهم؛ يَتذكَّرونَ بما فيه مِن عِبرةٍ وعِظةٍ.(131)

كما قال تعالى: هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 203].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: 57].

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52).

---

(131) ممَّن اختار القولَ المذكورَ –أنَّ المرادَ باسمِ الإشارةِ ذَلِكَ: القرآنُ–: ابنُ جرير، والقرطبي، والبيضاوي، وابن كثير، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى: إنزالِ الكِتابِ.

وممَّن اختاره: الماتُريديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن عادل، والبِقاعي.

وجعله ابنُ عثيمين احتمالًا.

يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (8/237)، ((الوسيط)) للواحدي (3/423)، ((تفسير البغوي)) (3/563)، ((تفسير ابن عادل)) (15/364)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (14/458)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة العنكبوت)) (ص: 294، 295).

قال ابن عثيمين: (فالقرآنُ في الحقيقةِ ذِكْرى مِن الوجهَين: مِن جهةِ أنَّه نزل مِن عندِ الله، ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنَّه نزَل مِن عندِ الله لا شكَّ أنَّه يَتذكَّرُ به ويُعَظِّمُه؛ لأنَّه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه مِن المعاني العظيمةِ والآثارِ الحميدةِ هي أيضًا آيةٌ مِن آياتِ الله...

فالله عزَّ وجلَّ أنزَلَ القرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرى، يعني: عِظةً يَتذكَّرُ به النَّاسُ، فبه يَتراحمونَ ويَرحَمون؛ فهو ذِكْرى ولكنْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

((تفسير ابن عثيمين– سورة العنكبوت)) (ص: 295).

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– للمُشركِينَ: حَسْبِيَ اللهُ شاهِدًا يَعلَمُ المحِقَّ مِنَّا مِن المُبطِلِ، فيَحكُمُ بَيْني وبيْنَكم.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: اللهُ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يخفَى عليه المحِقُّ مِن المُبطِلِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: والَّذين آمَنوا بما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، وكَفَروا باللهِ –وهو الحَقُّ وَحْدَه–: أولئك هم المتَّصِفونَ بالخَسارةِ أبدًا في الدُّنيا والآخِرةِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (53-55)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

يَغْشَاهُمْ: أي: يُصيبُهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ.

أي: ويَطلُبُ منك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن تُعجِّلَ وُقوعَ عَذابِ اللهِ عليهم.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال: 32].

وقال سُبحانَه: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [يس: 48].

وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ.

أي: ولولا تَقديرُ اللهِ لِعذابِ المُشرِكينَ بأن يَنزِلَ عليهم في وَقتٍ مُحدَّدٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ، لجاءهم في وَقتِ استِعجالِهم إيَّاه.

وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

أي: ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فجأةً دونَ أن يَشعُروا بوَقتِ مَجيئِه.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54).

أي: ويَستعجِلُك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، فلا بدَّ لهم مِن دُخولِها يومَ القيامةِ.

ثُمَّ ذَكَر سبحانَه كيفِيَّةَ إحاطةِ العذابِ بهم، فقال:

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55).

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ.

أي: إنَّ جَهنَّمَ مُحيطةٌ بالكافِرينَ يومَ يَغشاهم عَذابُها مِن فَوقِهم، ويَغشاهم مِن تحتِ أرجُلِهم.

كما قال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [الأعراف: 41].

وقال سُبحانَه: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [الأنبياء: 39، 40].

وقال عزَّ وجلَّ: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ [الزمر: 16].

وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: ويقولُ اللهُ للكافِرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تعمَلونه في الدُّنيا مِن كُفرانٍ وعِصيانٍ.

كما قال تعالى: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: 13 – 16].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [القمر: 48].

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (56–59)

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

غَريبُ الكَلِماتِ:

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ: أي: لَنُنزِلَنَّهم، ولَنُسْكِنَنَّهم، يُقالُ: بوَّأتُه منزلًا، إذا أنزلتَه ومكَّنْتَ له فيه، وأصل (بوأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ.

غُرَفًا: أي: مَنازِلَ عاليةً في الجنَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56).

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ.

أي: يا عباديَ الَّذين آمَنوا، إن لم تَتمكَّنوا مِن طاعتي وعِبادتي في بلدٍ، فإنَّ أرضي واسِعةٌ؛[132] فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تتمَكَّنونَ فيه مِن ذلك.

---

(132) اخْتُلِفَ في المعنى المراد بقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ﴾ على خمسة أقوال: أولها: أنّ المعنى: جانِبُوا أهلَ المعاصي بالخروج من أرضهم، واهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي.

وهذا قول سعيد بن جبير، وعطاء، وابن زيد.

والثاني: أنّ المعنى: إنّ ما أُخْرِج مِن أرضي لكم مِن الرزق واسعٌ لكم.

وهذا قول مُطَرِّف بن عبد الله بن الشّخِّير.

والثالث: أنّ المعنى: إنّ رحمتي واسعة لكم.

وهذا قول آخر لمُطَرِّف بن عبد الله بن الشّخِّير.

والرابع: أنّ المعنى: هاجروا وجاهدوا أعداء الله بالقتال.

وهذا قول مجاهد.

والخامس: أنّ المعنى: اطلبوا أولياء الله إذا ظهروا بالخروج إليهم.

وهذا قول أبي العالية.

وذكر ابنُ جرير (١٨/ ٤٣٥) القولين الأول والثاني فقط، ثم رجَّحَ القولَ الأولَ استنادًا إلى السياق، ودلالة العقل، فقال: «أولى القولين بتأويل الآية قولُ مَن قال: معنى ذلك: إن أرضي واسعة، فاهربوا مِمَّن منعكم من العمل بطاعتي. لدلالة قوله: ﴿فَإِيّايَ فاعْبُدُونِ﴾ على ذلك، وأن ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أنّ الأرض إذا وصفها بِسعَة فالغالب مِن وصفه إياها بذلك أنها لا تضيق جميعها على مَن ضاق عليه منها موضع، لا أنه وصفها بكثرة الخير والخصب».

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا [النساء: 97].

فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ.

أي: فلِي وَحْدي أخلِصوا العبادةَ، وأَظهِروا طاعتي حيثُما يُمكِنُكم مِنَ الأرضِ، ولا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تُطيعوا في مَعصيتِه أحدًا.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57).

كُلُّ نفْسٍ مخلوقةٍ واجِدَةٌ مَرارةَ الموتِ وكربَه لا مَحالةَ، والموتُ لا بدَّ نازلٌ بكم، وأيْنَما كنتُم يُدرِكُكم، ثمَّ تُرَدُّون بعْدَه إلى اللهِ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خيرِها وشرِّها؛ فكُونوا في طاعةِ اللهِ وحيثُ أمرَكم؛ فهو خيرٌ لكم.

كما قال تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: 26، 27].

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُسكِنَنَّهم في الجنَّةِ مَنازِلَ عاليةً.

قال تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [النحل: 41].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ أهلَ الجَنَّةِ يَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما يَتراءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ،[133] مِنَ المَشرقِ أو المَغربِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم! قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غيرُهم؟ قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ)).[134]

---

(133) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ.

الغابِرَ في الأُفُقِ: أي: الذَّاهِبَ الماشيَ الَّذي تدلَّى للغُروبِ وبَعُدَ عن العُيونِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (169/17)، ((شرح القَسْطَلَّاني)) (285/5).

(134) رواه البخاري (3256) واللفظ له، ومسلم (2831).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرْفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن أَلانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات للهِ قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ)).(135)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: تجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ العاليةِ أنهارُ الجنَّةِ.

كما قال تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى [محمد: 15].

خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: ماكِثينَ في غُرَفِ الجنَّةِ أبدًا، فلا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ.

نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

أي: نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ؛ تلك المنازِلُ العاليةُ الَّتي يُسكِنُهم اللهُ إيَّاها في جنَّتِه، وتَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها.

---

(135) أخرجه أحمد (6615)، والحاكم (1200).
صحَّحه الحاكِمُ على شرط مُسلم، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (289/1)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (257/2)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (111/10)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (617): حسَنٌ صحيحٌ.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59).

أي: الَّذين صَبَرَوا على طاعةِ اللهِ وإقامةِ دينِه، وتحمَّلوا أذَى المُشرِكينَ، وصَبَروا على مُفارَقةِ أوطانِهم؛ فِرارًا مِنَ الفِتَنِ، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ في أمورِ دينِهم ودُنياهم، فلا يَستعينونَ بغيرِ اللهِ في جهادِ أعدائِهم، وطلَبِ أرزاقِهم، وغيرِ ذلك مِن أمورِهم.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (60-64)

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَكَأَيِّنْ: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مركَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ.

يُؤْفَكُونَ: أي: يُصرَفونَ عن الحقِّ ويَحيدون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه.

يَبْسُطُ: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه.

الْحَيَوَانُ: أي: الحياةُ الدَّائِمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولفظُ الحيوانِ مصدرٌ كالحياةِ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60).

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ.

أي: هاجِروا وجاهِدوا في اللهِ –أيُّها المُؤمِنونَ– ولا تخافوا عَيْلةً أو إقتارًا؛ فكثيرٌ مِن الدَّوابِّ ذاتُ حاجةٍ إلى غذاءٍ وطعامٍ وشرابٍ، ولا تُطيقُ جَمْعَه وتحصيلَه، ولا تؤخِّرُ شَيئًا منه لغَدٍ، فيُقَيِّضُ لها اللهُ رِزْقَها على ضَعفِها، ويُيَسِّرُه لها؛ فكذلك يُيَسِّرُ اللهُ لكم أرزاقَكم أيُّها النَّاسُ.(136)

كما قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا... [هود: 6].

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه ودُعائِهم، العليمُ بأعمالِهم ونيَّاتِهم، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ تَوكُّلَكم ورَجاءَكم منه الرِّزقَ، كما أنَّه لا تَهلِكُ دابَّةٌ مِن عدَمِ الرِّزقِ لخفائِها عليه؛ إذ لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه.

---

(136) ذكر ابن عاشور أنَّه يجوزُ أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا أي: تَسيرُ غيرَ حاملةٍ رِزقَها.
وأنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بحملِ الرِّزقِ: التَّكَلُّفَ له، أي: لا تتكلَّفُ لرزقِها، وهذا حالُ مُعظَمِ الدَّوابِّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (25/21).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (325/4).
وقال ابن عثيمين: (ليس بصَوابٍ أن نقولَ: لا تَحمِلُ رزقَها؛ لِضَعفِها؛ لأنَّ هذا التَّعليلَ معناه أنَّها لا تحمِلُ رزقَها لأنَّها ضعيفةٌ؛ إمَّا ضعيفةٌ في الإرادةِ، أو ضعيفةٌ في البَدنِ، فليس هذا معنى الآيةِ، بل معناها: لا تَستطيعُ أن تكتَسِبَ).
((تفسير ابن عثيمين– سورة العنكبوت)) (ص: 361، 362).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

أي: ولَئِنْ سألْتَهم[137] -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقَمَرَ يَجْرِيانِ لِمَنافِعِكم ومَصالِحِكم؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو مَن خلَقَ وسخَّرَ ذلك دونَ مَن سِواه.

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.

أي: فكيف يُصرَفونَ إذَن عمَّن خلَقَ وسخَّرَ ذلك، فيَعدِلونَ عن التَّوكُّلِ عليه، أو يَترُكونَ إخلاصَ العبادةِ له؟!

---

(137) قيل: المرادُ بهم: المُشركون.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (438/18)، ((تفسير ابن كثير)) (294/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 635).

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62).

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ.

أي: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم وَفْقًا لِما فيه مَصلحةٌ ونَفعٌ لهم، بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه؛ فلا يَصُدَّنَّكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن الهِجرةِ وجِهادِ عَدوِّكم خَوفٌ مِنَ الافتِقارِ.

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمَصالِحِ عبادِه، فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ولا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أحوالِهم.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

أي: ولَئِنْ سألْتَهم -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي نزَّل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأحيا بسبَبِه الأرضَ اليابِسةَ بالنَّباتِ مِن بعدِ جُدوبِها وقُحوطِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك دونَ غيرِه.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ.

أي: وإذا قالوا ذلك فقُلْ –يا محمَّدُ–: الحَمدُ لله على إنزالِه الحُجَجَ، وتَبيينِه الحقَّ مِن الباطِلِ، وتيسيرِه النِّعَمَ.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

أي: بل أكثَرُ المُشركِينَ بالله لا يعقِلونَ الآياتِ، فلا يَعرِفونَ الحقَّ مِن الباطِلِ، ولا يتَّبِعونَه!

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64).

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ.

أي: وما هذه الحياةُ الدُّنيا الَّتي يتمَتَّعُ بها النَّاسُ إلَّا شَيءٌ يُتلَهَّى به ويُلعَبُ، لا حَقيقةَ لها ولا ثباتَ، وهي مُنقَطِعةٌ وزائِلةٌ.

كما قال تعالى: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [الحديد: 20].

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ هي دارُ الحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، الَّتي لا زَوالَ لها ولا انقِطاعَ، ولا موتَ فيها.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: فلو كان المُشرِكونَ يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ.

سورةُ العَنكَبوتِ

الآيات (65-69)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا
وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْفُلْكِ: السُّفنِ، وواحِدُه وجَمْعُه بلَفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلك: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

وَيُتَخَطَّفُ: أي: يُقتَلُ، ويُسلَبُ، ويُنهَبُ، ويُسْبَى، والخطفُ: الأخذُ بسُرعةٍ، وأصلُه: استِلابٌ في خِفَّةٍ.

مَثْوًى: أي: مَنزِلٌ، وأصْلُ الثَّوَاءِ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

.(65)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

أي: فإذا رَكِبَ المُشرِكونَ في السَّفينةِ، وخافوا الغرَقَ والهلاكَ، أخلَصوا لله الدُّعاءَ، وأفرَدوا له الطاعةَ؛ لِيُخَلِّصَهم مِن تلك الشِّدَّةِ، وتَرَكوا اللُّجوءَ إلى آلهتِهم وقد عَلِموا أنَّها لا تَنفعُهم!

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ.

أي: فلمَّا نجَّى اللهُ المُشرِكينَ مِنَ الهلاكِ في البَحرِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ آمِنينَ؛ انقَلَبوا مُشرِكينَ باللهِ غيرَه، وتَرَكوا دُعاءَه وعبادتَه وَحْدَه!

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: 67].

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66).

أي: يُشرِكُ أولئك الكُفَّارُ بعدَ إنجائِهم؛ لِيَجحدوا نِعمةَ اللهِ عليهم، ولِيَتمتَّعوا بدُنياهم القَصيرةِ الفانيةِ بَقيَّةَ أعمارِهم، ثمَّ لا يكونُ لهم نصيبٌ في الآخِرةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ.(138)

(138) ممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: لِيَكْفُرُوا وقولِه: وَلِيَتَمَتَّعُوا للتَّعليلِ، أي: (لام كَيْ): الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والشوكاني، والألوسي.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (174/4)، ((تفسير السمرقندي)) (640/2)، ((تفسير الشوكاني)) (244/4)، ((تفسير الألوسي)) (14/11).

وقيل: اللَّامُ في لِيَكْفُرُوا وَلِيَتَمَتَّعُوا للأمرِ على معنى الوعيد.

والمعنى: لِيَجحَدوا نعمةَ الله، ولِيَتمتَّعوا بباقي عُمُرِهم؛ فسوف يَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِهم.

وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ.

يُنظر: ((الوسيط)) (426/3).

وقال ابنُ جرير: (لام قولِه لِيَكْفُرُوا صلَحَتْ أن تكونَ بمعنَى كَيْ؛ لأنَّها شرطٌ لقَولِه: إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ باللهِ، كيْ يَكْفُروا بما آتَيْناهم مِن النِّعَمِ، وليس ذلك كذلك في قولِه: وَلِيَتَمَتَّعُوا؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ كان كفرًا بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تَمتُّعًا بالدُّنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يُسَهِّلُ لهم سبيلَ التَّمَتُّعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك، فتوجيهُه إلى معنَى الوعيدِ أَوْلَى وأحَقُّ مِن توجيهِه إلى معنَى: وكَيْ يتَمَتَّعوا).

((تفسير ابن جرير)) (442/18).

وممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: لِيَكْفُرُوا لامُ الأمرِ: البَغَويُّ، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (567/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (413/3)، ((تفسير ابن جزي)) (129/2)، ((تفسير العليمي)) (264/5).

وقيل: اللَّامُ في كِلا الفِعلَين: لامُ العاقبةِ.

والمعنى: ولكِنْ شِرْكُهم هذا بعْدَ نِعمتِنا عليهم بالنَّجاةِ مِن البَحرِ؛ لِيَكونَ عاقبتُه كُفرَ ما آتَيْناهم، ومُقابَلةَ النِّعمةِ بالإساءةِ، ولِيُكمِلوا تمتُّعَهم في الدُّنيا الَّذي هو كتمَتُّعِ الأنعامِ، ليس لهم همٌّ إلَّا بُطونُهم وفُروجُهم.

وممَّن قال بهذا: السعديُّ.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 636).

وقيل: اللَّامُ هنا للعاقبةِ في حَقِّ هؤلاء المشركين، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك فهي لامُ التَّعليلِ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَلِيَتَمَتَّعُوا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ وَلْيَتَمَتَّعُوا بإسكانِ اللامِ، وهي لامُ وعيدٍ وتهديدٍ في لفظِ الأمرِ، كقَولِه تعالى: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [فصلت: 40].[139]

2- قِراءةُ وَلِيَتَمَتَّعُوا بكَسرِ اللَّامِ. قيل: اللامُ هنا للتَّعليلِ، وقيل: هي للأمرِ في معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى.[140]

وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (295/6).

قال ابن كثير: (هذه اللَّامُ يُسَمِّيها كثيرٌ مِن أهلِ العربيَّةِ والتَّفسيرِ وعُلماءِ الأصولِ: لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لا يَقصِدون ذلك، ولا شَكَّ أنَّها كذلك بالنِّسبةِ إليهم، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك وتقييضِه إيَّاهم لذلك فهي لامُ التَّعليلِ).

((تفسير ابن كثير)) (295/6).

قال ابنُ عاشور: (الكفرُ هنا ليس هو الشِّرك، ولكِنَّه كُفْرانُ النِّعمةِ؛ بقرينةِ قَولِه: بِمَا آتَيْنَاهُمْ؛ فإنَّ الإيتاءَ بمعنى الإنعامِ، وبقرينةِ تفريعِه على يُشْرِكُونَ؛ فالعِلَّةُ مُغايِرةٌ للمَعلولِ، وكُفرانُ النِّعمةِ مُسَبَّبٌ عن الإشراكِ؛ لأنَّهم لَمَّا بادَروا إلى شؤونِ الإشراكِ فقد أخَذوا يَكفُرونَ النِّعمةَ).

((تفسير ابن عاشور)) (33/21).

(139) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (344/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 282)، ((معاني القراءات)) للأزهري (261/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 555).

(140) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (344/2).

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

أي: فسوف يَعلَمُ الكُفَّارُ عاقِبةَ كُفرِهم حين يَرَونَ ما يَلقَونَ مِن عذابِ اللهِ!

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالَى بنِعَمِه، فقال:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ.

أي: أوَلَمْ يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا بلَدَهم مكَّةَ حَرَمًا مَصونًا مِنَ النَّهبِ والتَّعدِّي، سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، والحالُ أنَّ غيرَهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم يَنْهَبُ بعضُهم بعضًا، ويَقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا؟!

كما قال تعالى: وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا [القصص: 57].

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 282)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/261)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 555).

وقال سُبحانَه: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: 1 – 4].

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ.

أي: أفبِالشِّركِ يُؤمِنُ أولئك القومُ، وبالنِّعمةِ الَّتي أنعمَ بها عليهم يَجحَدونَ، فيَجعَلونَ مَوضِعَ شُكرِهم له شِرْكَهم بعبادةِ غَيرِه!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ

أي: ولا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، فادَّعى عليه ما لم يَقُلْه وما لا يَرضاه؛ كمَن زعَم أنَّ له شريكًا، أو كذَّب بمُحَمَّدٍ وبالقرآنِ حينَ جاءَه، مِن غيرِ أن يُمهِلَ نَفْسَه للنَّظَرِ والتَّأمُّلِ.

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ.

أي: أليس في جهنَّم مأوًى ومقامٌ دائِمٌ للكافِرينَ؟!

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69).

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.

أي: والَّذين بَذَلوا جُهْدَهم للعَمَلِ بما يُرضي اللهَ، وتَرْكِ ما يُسخِطُه لَنَدُلَّنَّهم ونُوَفِّقَنَّهم إلى الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلينا وإلى رِضْوانِنا في الدُّنيا والآخرةِ.(141)

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [محمد: 17].

وقال سُبحانَه: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 5 – 7].

وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنينَ بالحِفظِ والنَّصرِ، والإعانةِ والهدايةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [النحل: 128].

---

(141) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٦٦١) أن «السبل» هاهنا يحتمل احتمالين: الأول: أن تكون طرق الجنة ومسالكها.
الثاني: أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النيرة.
ثم نقل أن يوسف بن أسباط قال: «هي إصلاح النية في الأعمال، وحب التزيد والتفهم، وهذا هو أن يجازى العبد على حُسنه بازدياد حسنه، ويُعلّم بجديد مِن علْم مقدم، وهي حال مَن؟».
وقال ابنُ القيم (٢/ ٣٠٤): «عَلَّقَ سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هدايةً أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومَن ترَك الجهاد فاته مِن الهدى بحسب ما عطّل من الجهاد».

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان يومًا بارِزًا للنَّاسِ، إذْ أتاه رجُلٌ يمشي... قال: يا رَسولَ اللهِ، ما الإحسانُ؟ قال: الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ)).[142]

(142) رواه البخاري (4777) واللفظ له، ومسلم (9).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثَّالثُ والعشرونَ

ويَليه المجلَّدُ الرَّابعُ والعشرونَ، وأوَّله: تفسير سُورة الرُّومِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا